DNA

رواية دراما و خيال علمي

د. غفار محمد

... DNA

إهداء :

إلى ألمى .. التي منحت حياتي المعنى بعد أن فقدته ..

... DNA

محتوى الكتاب :

- خطأ مطبعي ..
- زويا ..
- شفرة **DNA** ..
- خنجر القدر ..
- السرّ إذا تجاوز الاثنين شاع ..
- صراع مع الذات ..
- صدمة مدويّة ..
- ترند التاريخ ..
- لا حذر من قدر ..
- فسحة أمل ..
- لن تفهم نفسك إلا بعد أن تفقد كل شيء ..

... DNA

الفصل الأول

خطأ طبي

اسمه **أوريل كاين**، رجلٌ في منتصف الثلاثينات، بملامحٍ حادّة تشبه وجوه التماثيل التي صُقلت على عجلٍ ثم تُركت نصف مكتملة. عيناه رماديتان، باردتان كصفحة بحيرةٍ متجمدة، ووجهه يحمل تلك السكينة المريبة التي تسبق العاصفة الفكرية.

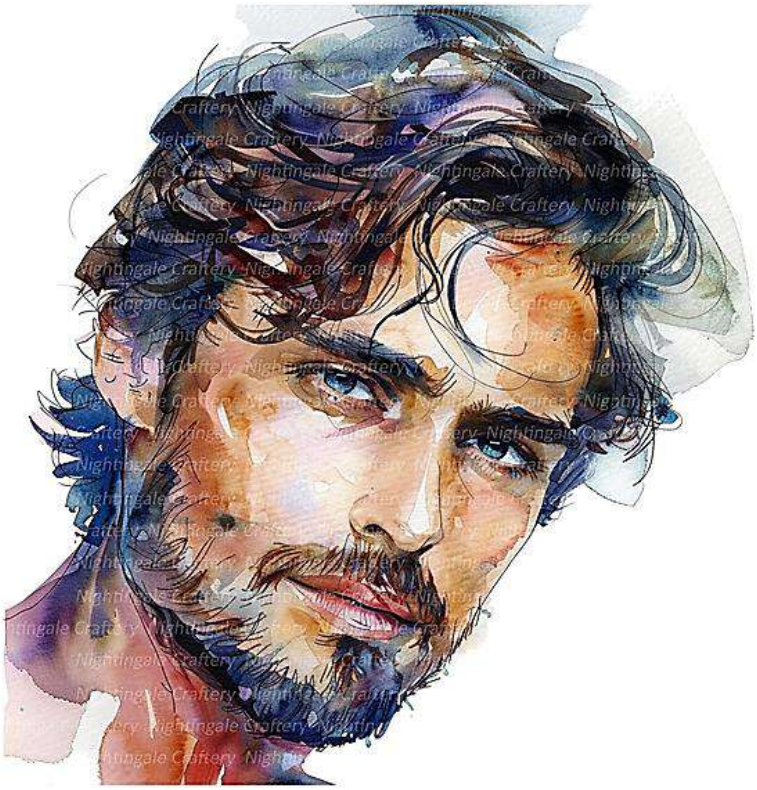

كل من يراه يدرك على الفور أنه يعيش في مدارٍ مختلف عن الآخرين ، لا يشبه العلماء الذين يتحدثون بثقةٍ ويضحكون في المقاهي القريبة من المختبر، بل كان أشبه برجلٍ من الماضي، من زمنٍ ما قبل اللغة.

في الممرات الصامتة **لمعهد كارفر للبحوث الوراثية** في **سان فرانسيسكو**، كان أوريل يسير بخطواتٍ دقيقة، متوازنة، كأنه يقيس الزمن بخطواته.

الموظفون الشباب كانوا يهمسون عنه : *(ذلك الذي ينام في المختبر)* .

فهو لم يغادره حقًا منذ ثلاث سنوات، إلا ليحمل ابنته إلى الأطباء أو إلى السماء المفتوحة حين يضيق البيت بأنفاسها.

ولم يكن يُرى يضحك. ربما ضاع ضحكه مع أول تحليل دمٍ لابنته، أو ربما لم يعرف كيف يضحك أصلًا منذ عرف أن الجينات لا ترحم أحدًا.

نشأ أوريل في بلدةٍ صغيرة قرب **بورتلاند، أوريغون**، في منزلٍ خشبيٍّ على حافة الغابة. أبوه كان نجّارًا يبني توابيتاً أحيانًا عندما يقلّ الطلب على الأثاث، وكان يقول له : *(كل إنسانٍ هو قطعة خشب يا أوريل، نُقطع ونُشكَّل حسب ما يقرره القدر)*

أما أمّه، فكانت رسامةً في مشرحة المستشفى المحلي، تلوّن وجوه الموتى لتبدو أقل وحشةً في وداعهم الأخير.

ومن هذا التناقض بين اليدين - يدٍ تصنع للحياة شكلها، ويدٍ تجمّل موتها - وُلد وعي أوريل بأن الجمال هشّ، وأن كل ما نحبه معرّضٌ للتكسر في أية لحظة.

ربما لهذا درس **علم الوراثة** .. لأنه أراد أن يفهم كيف سبغت جيناته صفات والديه و أجداده عليه .

لم يكن العلم بالنسبة إليه مهنةً ولا حتى شغفًا، بل سؤالًا وجوديًا : لماذا نُصاب بالخلل ؟ لماذا نخون أنفسنا من الداخل ؟ ولماذا تحمل خلايانا سرّ فنائنا منذ اللحظة الأولى لتكوّنها ؟

في الجامعة، كان زملاؤه يرونه غريب الأطوار، لا يشرب القهوة، لا يحضر المؤتمرات الاجتماعية، ويكتب في دفترٍ خمري ملاحظات لا يفهمها أحد.

لكن أحد أساتذته وصفه ذات يوم بأنه : (رجلٌ يسكن في نصف قرنٍ قادم) .. وكان على حق.

فبينما كان العالم مشغولًا بالحمض النووي كمخزنٍ للمعلومات، كان أوريل يتعامل معه كنصٍّ مقدّس، كنصٍّ خفيٍّ لا يُقرأ بالأجهزة بل بالبصيرة.

ثم جاءت ابنته **آفا كاين**.

طفلة كأنها انعكاس الضوء على صفحة ماء، وجهها يحمل صفاءً يُخيف أكثر مما يُريح. في الأشهر الأولى

بعد ولادتها، لاحظ أن بشرتها شاحبة إلى حدٍّ غريب، وأن جروحها الصغيرة لا تلتئم كما ينبغي.

و بعد سلسلة طويلة من التحاليل والفحوصات، نطق الأطباء الحكم القاسي :

(اضطرابٌ خلقي نادر في نُخاع العظم، يجعل خلايا الدم البيضاء تتقلص ببطءٍ حتى تتوقف عن الدفاع.
مرضٌ بلا علاجٍ معروف ، و حياةٌ محكومة بزمنٍ قصير، أشبه بخطأ مطبعي في جيناتها أفقدها المعنى)

ذلك اليوم، حين خرج من غرفة الطبيب وهو يحمل ابنته بين ذراعيه، شعر أن الجاذبية الأرضية تضاعفت فجأة. لم يعد قادرًا على النظر إلى الناس في الشوارع، فقد صار كل وجهٍ بالنسبة إليه تذكيرًا بما سيفقده.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعد العلم بالنسبة إليه سؤالًا بل معركة.

في منزله الرمادي المطلّ على خليج سان فرانسيسكو، أسس مختبرًا صغيرًا في الطابق السفلي. جدرانه تعكس ضوء الشاشات الزرقاء، وأزيز الأجهزة يملأ الليل كأن البيت نفسه يتنفس.

هناك، بين أنابيب الاختبار وأوراق الملاحظات، كان يجلس كل ليلة أمام شاشة الكمبيوتر، يراقب دمها تحت

الميكروسكوب كما يراقب أبٌ وجه ابنته النائمة.

وفي الصورة المكبّرة، لم يكن يرى خلايا فقط، بل رموزًا. حروفًا لا يفهمها أحد :

A، T، C، G ـــ الحروف الأربعة التي تبني الحياة و تخفي الموت ، أو ما تدعوها اللغة العلمية الجافة : (الأسس الآزوتية في **DNA** التي تترجم إلى بروتينات تبني كامل الجسم)

لكنه، بخلاف العلماء الآخرين، لم يرَها مجرد تسلسل كيميائي، بل لغة كونية تحاول أن تُفصح عن سرّها.

كان يشعر أحيانًا أن هذه الحروف تتهجّى شيئًا يشبه القصيدة، لكنها ناقصة.

وكان يكتب في دفتره الخمري :

(ربما ليست الجينات هي من تصنع الإنسان، بل القصة التي تُروى من خلالها .. لو استطعت فقط أن أترجمها، حرفًا بعد حرف، لعرفت كل شيء)

كان قد فقد زوجته **مارغريت** قبل عامين، حين لم تحتمل صمته ولا هوسه الذي التهم البيت كله و يئست من نجاة ابنتها. تركته ورحلت بنرجسية ثم تزوجت ثانيةً ، وبقي هو مع آفا وكلبه العجوز **داروين**.

لم يعد يعرف من العالم إلا صوت الأجهزة ونبض ابنته

الضعيف.

وحين تنام بعد جرعة المورفين، كان يجلس قرب سريرها، يقرأ عليها بصوتٍ خافتٍ من كتابٍ علمي كما لو كانت حكاية ما قبل النوم، ثم يدوّن على أوراقه :

(الخلية تكتب قصتها كما تكتب القصيدة ذاتها)

وذات مساءٍ، والضباب يغطي جسور سان فرانسيسكو الذهبية والطرقات تلمع من المطر، جلس في مختبره يراجع عينة دمٍ جديدة.

البرق يشقّ السماء، والأجهزة تلمع مع كل ومضة، والهواء يعبق برائحة الكهرباء المحترقة.

حين ظهرت على الشاشة خريطة التسلسل الجيني، لاحظ شيئًا غريبًا : **نمطٌ من التكرار في منتصف الشيفرة، كأن الجين يحاول قول شيءٍ منظمٍ لا مكان للصدفة فيه !!**

لم يكن هذا التكرار موجودًا في العينات السابقة.

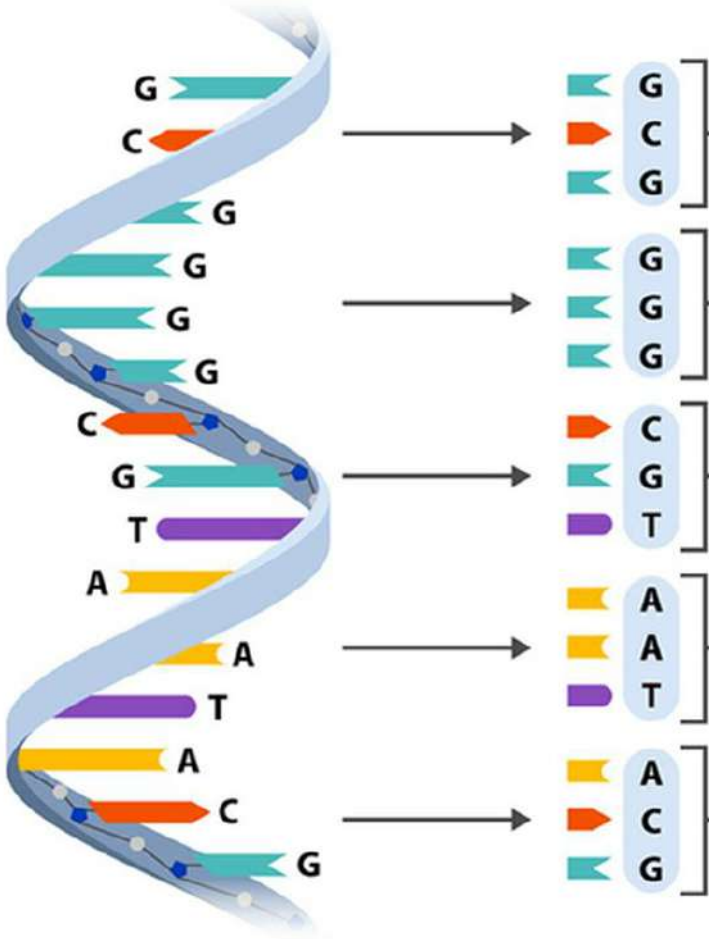

اقترب أكثر، قلب الشيفرة، أعاد التحليل، فبقي النمط كما هو : دقيقًا، متناغمًا، متكرّرًا بصرامةٍ غير بشرية.

وفي لحظةٍ نادرة من النشوة والذعر، أحسّ أن ما يراه ليس مجرد تتابعٍ كيميائي، بل إيقاع لغوي. كأن الخلية تهمس له بلغةٍ خامٍ لم تُكتشف بعد.

كتب ملاحظةً سريعةً على دفتره :

(هل يمكن تحويل تسلسل الجينوم إلى لغة يمكن قراءتها ؟ هل يمكن أن تكون هذه الحروف الأربعة نظام كتابة لم نكتشفه بعد ؟)

وقف أمام النافذة، والضباب يغطي الخليج، فرأى جسور المدينة كخيوط فضية تمتدّ فوق الماء، شعر ببرودة الهواء تتسلل إلى جسده.

سقطت بعض قطرات المطر على الزجاج، فخلق انعكاسات صغيرة كأنها نجوم صغيرة.

نظر إلى انعكاسه في الزجاج، فرأى رجلاً غارقًا في صمتٍ عميق، لكنه أيضًا حيٌّ بشكلٍ لا يفهمه أحد.

قال بصوتٍ خافتٍ :

= ربما لسنا نحن من نكتب حياتنا ... بل تُكتب فينا منذ البداية، سطرًا بسطر، في لغاتٍ لا نفهمها بعد ..

ثم أطفأ الأضواء، وترك شاشات المختبر تومض وحدها كشموعٍ في معبدٍ علميٍّ مظلم، وجلس في كرسيه يحدّق في النقطة الصغيرة على الشاشة ، بدت له وكأنها قلب الكون كله.

المدينة، الضباب، والجسر المضاء، كل شيء صار يتنفس معه، كما لو أن سان فرانسيسكو كلها تراقبه ، صامتة، متأهبة، ومليئة بالأسرار.

الفصل الثاني

زوايا

كان الضباب يهبط على سان فرانسيسكو كما لو أنه كائن يفكر، يتنفس، ويتذكّر.. يتمدّد على الأبنية القديمة في **نورث بيتش**، يحتضن شرفاتها بإصرار العاشق الذي يخاف الفقد، ويضغط على الشوارع المبلّلة برائحة البحر المالحة ، حتى تبدو المدينة ككائن غارق في حلمه. في عمق هذا الحلم، مشت **زويا هاربر** بخطوات تشبه الهمس، كأنها تمرّ عبر العالم دون أن تلامسه، أو كأنها تخاف أن تستيقظ منه.

كانت في منتصف عقدها الثالث، في العشرينات التي لم تتعلّم بعد أن تكون مرحلة عمرية فحسب، بل مفترقًا بين ضجيج الحياة وصمت المعنى. بشرتها الخلاسية كحبات البنّ المحمصة تشي بانتماءات متداخلة، كأنها ابنة

الجنوب والشمال معًا. في ملامحها رقة لم تُفسدها التجارب، لكنها ليست براءة ، و في عينيها البنيتين بريق يشبه غروبًا يتردّد بين الأمل و الانطفاء.

زويا ليست جميلة بالطريقة التي تُبهر، بل بالطريقة التي تُقلق .. جمالها فكرٌ أكثر منه مظهر .. ومن يتأملها طويلًا يشعر أن وراء ابتسامتها المتحفظة سردًا لم يُكتب بعد.

قال الأديب الأرجنتيني **خورخي بورخيس** ذات مرة : *(كل إنسان هو قصة غير مكتملة يحاول الزمن أن يكتبها ثم يتعب في منتصف الطريق)* ، وربما كان يقصد بذلك فتاةً مثل زويا، التي تتقاطع فيها الحكايات ولا تكتمل أبدًا.

كانت تسكن في شقة صغيرة تطل على الخليج، قرب **شارع لومبارد** المتعرّج كأفعى متعبة. هناك، يتداخل صخب المدينة مع موسيقى الأمواج، وتصبح المسافة بين العالم الخارجي وداخلها مجرد نافذة.

أمها تدرّس الأدب الإنجليزي في جامعة المدينة، ووالدها، الذي لم تعرفه إلا على فترات، يمخر البحار في سفن تجارية تعبر المحيطات أكثر مما تعبر الكلمات بينه وبين ابنته. كانت وحيدتهما، وحيدة أيضًا في داخلها، تعيش بين أم غارقة في الرموز وبحرٍ ابتلع أبًا

لم يعد .. لذا اختارت الاستقلال و العيش بمفردها فهي وحيدة بكل الأحوال ..

كل صباح، كان الضباب نفسه يوقظها برفقٍ غامض، كأن المدينة نفسها تخشى أن تجرح حلمها. تنهض بهدوء، تُعدّ قهوتها البنية كما لو كانت طقسًا مقدّسًا، ثم تجلس عند النافذة، تتأمل الجسر الذهبي وهو يختفي تدريجيًا خلف الستار الأبيض. في الخارج، كل شيء متحوّل. وفي الداخل، كل شيء ساكن حدّ الوجع.

زويا مدرّسة موسيقى في معهد صغير، لكن مهنتها ليست مجرد عمل؛ إنها طريقة لتنظيم الفوضى. كانت تقول في سرّها إن الموسيقى هي اللغة الوحيدة التي لم تكذب عليها يومًا. تدرّس لتلاميذها الأوتار والأنغام، لكنها في الحقيقة تدرّسهم كيف يُصغون لأنفسهم.

الكمان الحزين هو صديقها الأقدم، بل كائنها الموازي ربما لأنها تجد فيه انعكاساً لروحها المتعبة. حين تمسكه، يتحول إلى قلبٍ آخر يخفق خارج صدرها. تعزف عليه كما لو أنها تترجم وجعًا لا يملك كلمات. وتقول لنفسها إن الحزن، حين يتحوّل إلى موسيقى، يصبح احتمالًا للنجاة.

كانت أكثر ما تحب أن تعزفه هو مقطوعة (Adagio for Strings) **لصموئيل باربر**، تلك التي يشبه انسيابها نحيبًا يخترق الزمن. حين تعزفها في المساء، تنسجم النغمات مع الزحف البطيء للضباب على المدينة، وكأن سان فرانسيسكو كلها تنحني لتستمع.

في الأمسيات الطويلة، كان الكتاب رفيقها الآخر. في مكتبها الصغيرة تصطف كتب الأدب و الفلسفة و

الموسيقى، كأنها أرواح تراقبها بصمت. هناك تقرأ **لنيتشه**، وتبتسم بتفاؤل حين تتذكر عبارته العظيمة :
(من يمتلك سببًا ليعيش، يستطيع احتمال أي صعوبات و عقبات في الحياة)

لكنها كانت تدرك أن السبب ليس واضحًا دائمًا، وأن بعض الناس يعيشون فقط لأنهم لم يجدوا مبررًا كافيًا للموت.

أحيانًا تزور المكتبة العامة، تلك المبنية على طراز كلاسيكي بأعمدتها البيضاء العتيقة، التي يخترقها الضباب كثيراً فيصير الضوء ناعمًا كخيط من الحلم. بين الرفوف المزدحمة، تشعر بأن الكتب تنصت إليها. تسمع همس **بورخيس** في ذهنها مجدداً : *(كل لحظة نعيشها هي حلم داخل حلم آخر)* .. عندها، تنسى أين

تبدأ الحياة وأين تنتهي القراءة، لأن كلتيهما في النهاية فعل تأمل في العدم.

رغم دفء المعرفة، كانت الوحدة تمتد فيها كجذر صامت. لا أصدقاء حقيقيون، لا لقاءات عابرة تشفي الفضول. كانت تفضّل الصمت، لأن الضوضاء البشرية، كما تقول، (تشوّه اللحن الداخلي للروح) ، ومع مرور الوقت، صار العزوف عن الآخرين عادة أكثر من كونه خيارًا.

لكن هذه العزلة لم تكن خالية من الكآبة.

كانت تمر عليها لحظات تشعر فيها بأن ثقل العالم يضغط على صدرها، وأن اللاشيء يملأ كل الفراغات الممكنة. حينها، تتذكّر **كافكا**، الذي كتب ذات مرة : *(لن أكتشف الحقيقة إلا بعد أن أفقد كل شيء) ..*

تدرك أن الفقد ليس نهاية، بل عبور نحو وعي آخر، نحو نوع من الحرية الموجعة .. و حدسها يخبرها أنها على موعد قريب مع حادثة تفقد فيها كل شيء كي تبصر نور الحياة بصفاء .

وفي إحدى تلك الأمسيات التي بدا فيها الزمن متعبًا من نفسه، خرجت زويا إلى ضفة النهر القريبة من جسر البوابة الذهبية.

كانت السماء رمادية، والبحر يعكس وجه المدينة كمرآة مشوشة. جلست هناك، والكمان بين يديها. بدأت المقطوعة التي تعرفها المدينة عنها، Adagio for Strings. انطلقت النغمات ببطء، كدموع متأخرة. الضباب احتواها كما يحتضن حلمًا خائفًا من الفجر.

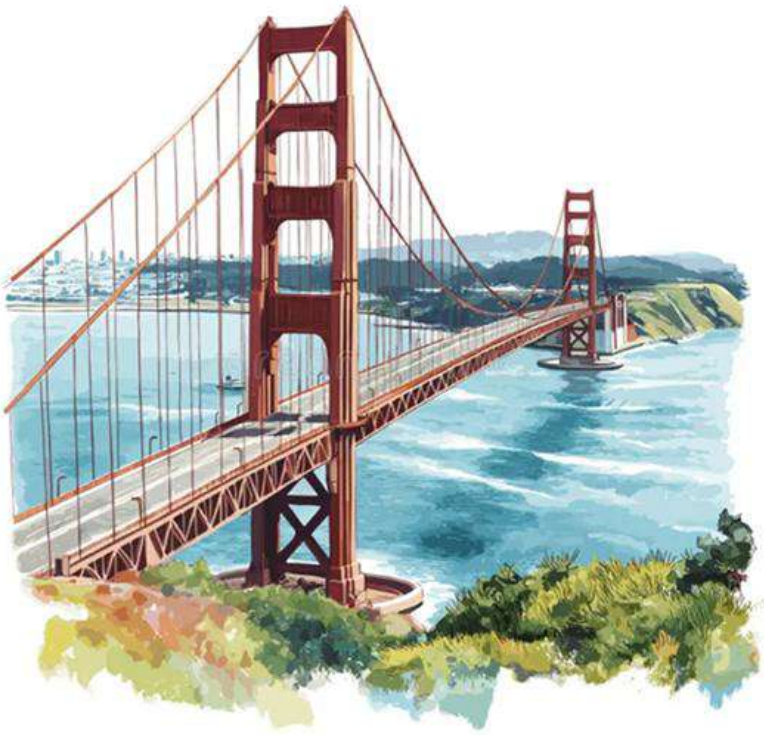

في تلك اللحظة، لم تعد ترى العالم كما هو، بل كما تشعر به.

الضوء الباهت على صفحة الماء، الريح الباردة، الطيور العائدة إلى أعشاشها، كل ذلك بدا كأنه جزء من اللحن، من نبضها هي.

وتذكرت **نيتشه** مرة أخرى بمقولته العميقة : *(يجب أن يكون في الإنسان فوضى، ليُولد في أعماقه نجم راقص)* ..

ابتسمت بخفة، فها هي فوضاها تولد موسيقى، والموسيقى بدورها تولد نجمًا صغيرًا في هذا المساء الموحش.

لم تكن تعرف أن تلك المقطوعة ستكون بداية لشيء لم تخطط له أبدًا، لحدث سيجعل المدينة كلها تصغي إلى اسمها كما تصغي الآن إلى أنغامها...

لكن ذلك، كما ستعرف لاحقًا، هو ما يفعله القدر حين يجد أخيرًا من يعزف ألحانه بدلاً منه.

الفصل الثالث

شفرة DNA

بينما كان الليل يهبط على سان فرانسيسكو بهدوء مثل شال من رماد، يلفّ المدينة ببطء، و يخفي خلفه أضواء الجسر الذهبي التي تتراقص كأنها نبضات قلب في صدرٍ بعيد ، كان أوريل كاين في المختبر الصامت في الطابق السفلي من جامعة ستانفورد، وحيدًا أمام الشاشة الزرقاء ، تتراقص عليها شرائط متتابعة من النيوكليوتيدات : **A – T – C – G**.

سلسلةٌ لا تنتهي، تشبه عزفًا صامتًا بلغةٍ لم تُفكّ رموزها بعد.

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، والهواء في المختبر مشبع برائحة الكحول والمعدن البارد.

وقف أوريل أمام العينة الرابعة من دم ابنته آفا، وضعها تحت المجهر الرقمي، و شرع يراقب كيف تتحلل الجزيئات لتكشف أسرارها البطيئة.

كان يحاول منذ عامين أن يفهم الطفرة التي جعلت ابنتَهُ تولد بخلل مناعي قاتل و مشوه ، كما لو أن الحياة نفسها نسيت أن تكمل فيه تفاصيلها.

قال مرة في محاضرة :

(الطبيعة ليست شريرة، لكنها نسيانٌ كبير. وما نحاول نحن العلماء فعله هو التذكير)

لكن تلك الليلة، لم يكن فيلسوفًا ولا عالمًا ولا أبًا فقط. كان شيئًا ثالثًا ، قلقاً من كل ما يخافه الإنسان حين يُدرك أنه قد يفقد جزءًا من نفسه.

ضغط على زر التحليل الكمي، فامتلأت الشاشة بخطوط متشابكة، كأنها شيفرات موسيقية.

منذ أسابيع، بدأ يلاحظ تكرارًا غريبًا في أحد المقاطع الجينية، تتابع من النيوكليوتيدات يعيد نفسه بانتظام عجيب.

AAGTC ... AAGTC ... AAGTC ... ثم فراغ طويل، ثم نمط آخر، وكأن شخصًا ما يكتب بجملة ثم يصمت ليلًا طويلًا قبل أن يكملها.

رفع رأسه، حدّق في الظلام خلف الزجاج، حيث تنعكس صورته على السطح اللامع. بدا له وجهه كوجه رجل نسيَ النوم منذ قرن.

في تلك اللحظة، دخل **أندريه بتروف** الباحث الروسي، يحمل كوب قهوة بيد، ودفتر ملاحظات بيد أخرى.

قال بصوته الخشن :

= ما زلت هنا يا أوريل ؟ الناس تنام، والجنون وحده يسهر مع العلماء ..

ابتسم أوريل بلا حماسة :

= أتعرف ما المأساة يا أندريه ؟ أني لا أبحث عن اكتشافٍ بعد اليوم ... أبحث فقط عن سببٍ لأمنح ابنتي الغد ..

جلس أندريه إلى جانبه، يحدق بالشاشة. خطوط الـ **DNA** تتراقص بلا توقف.

قال بعد صمت بصراحته المزعجة التي اعتاد أوريل عليها :

= أعرف هذا الوجه، رأيته على كثير من الآباء قبل أن يفقدوا أبناءهم. لكن، ما الذي تراه هنا ؟ تبدو كأنك تتحدث عن موسيقى ..

= ربما هي كذلك ..

= موسيقى الجينات ؟

= لم لا ؟ انظر هنا ...

أشار إلى الشاشة ..

= هذا النمط يتكرر بمعدل يقترب من **1.618** ..

= النسبة الذهبية !!

= أجل .. صدفة ؟ لا أعتقد ..

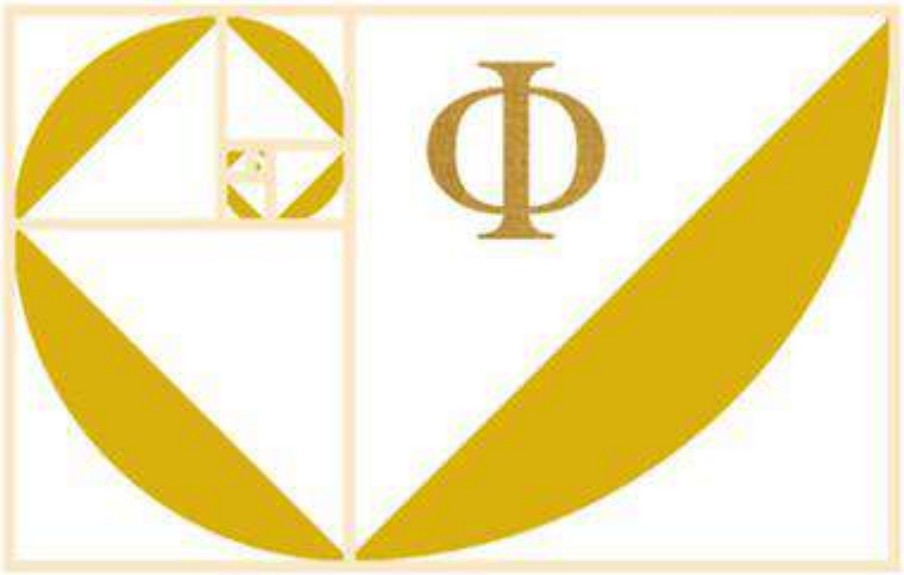

أخرج أندريه نظارته، اقترب أكثر.

= أوريل، أحيانًا تبحث العقول الكبيرة عن النظام في الفوضى لمجرد أنها تخاف من العدم ..

ردّ أوريل بهدوءٍ بارد :

= ربما، لكن لو كانت الفوضى صافية كما نعتقد، لما كرّرت نفسها بهذه الدقة. شيء ما في الجينوم يُعيد كتابة ذاته. كأنه ... يتذكر ..

فجأة دخلت **ميران** ، زميلتهم الباحثة التركية بهدوء، ترتدي معطفها الأبيض وقناعها الأزرق المتدلّي عند العنق. كانت أشبه بضوء يسير على أطراف أصابعه كي لا يوقظ شيئًا نائمًا في الظلام.

= هل ما زلتما تناقشان الأرواح الساكنة في الخلايا ؟ قالت مبتسمة.

أجاب أوريل :

= أرواح أم رموز؟ لا فرق. كل شيء في الطبيعة يحمل صوتًا خافتًا ... ونحن نحاول فقط رفع مستوى الصوت ..

قالت ميران، وهي تقترب من الشاشة :

= أنتم تبحثون في الجينوم عن الحياة، وأنا أراها في الذاكرة التي لا تموت. الجينوم لا ينسى؛ كل خلية تحتفظ بأثر كل ما عشناه ..

سادت لحظة صمت.

و في تلك اللحظة بالذات، شعر أوريل أن كلمتها تلمس شيئًا غامضًا في صدره.

تذكّر ضحكة آفا حين كانت تحاول عزف مقطوعة بسيطة على البيانو الصغير في غرفتها البيضاء.

كانت أناملها الصغيرة تخطئ في النوتات، لكنه كان يشعر أن الكون نفسه يبتسم.

التفت إلى ميران :

= لو كانت الخلايا تحتفظ بالذكريات ... فربما تحتفظ أيضًا بما سيأتي ..

ضحكت قائلة :

= أنت تتحدث كروائي، لا كعالم ..

= العلم والرواية وجهان لجنون واحد. كلاهما يبحث عن الخيط الذي يربط البداية بالنهاية ..

بدأت ميران تراقب تتابع الشيفرة على الشاشة، كأنها تستمع إلى قطعة موسيقية لا يسمعها أحد سواها.

قالت بعد لحظة تأمل :

= ماذا لو كانت هذه التكرارات ليست خللًا بل لغة ؟

أندريه ساخراً :

= لغة من أربعة أحرف ؟ مضحك ..

= اللغة التي بدأ بها الكون كانت من حرفٍ واحد، أندريه ... صوت الانفجار الأول ..

صمت الجميع. الضوء الأزرق للشفرة انعكس على وجوههم كأنها نارٌ مقدسة من زمنٍ سحيق.

في زاوية الطاولة، كان دفتر أوريل مفتوحًا.

كتب عليه بخطٍّ مضطرب :

(لو استطعتُ تحويل النيوكليوتيدات إلى رموز ... ثم إلى حروف، ربما أسمع ما تقوله الحياة حين تكتب ذاتها)

قرأ أندريه السطر، هزّ رأسه قائلًا :

= جنون. هذا ما سيجعلك تفقد تمويلك، و اتزانك النفسي ، وعقلك، إن لم تكن قد فقدت الأخير ..

أجابه أوريل بابتسامة حزينة :

= ربما يكون الجنون هو الحدّ الأخير بين الإنسان والحقيقة. ألم يقل **كافكا** : *(الطريق الحقيقية تمر على حبل مشدود فوق الهاوية ؟)*

ابتسمت ميران، وكأنها تحفظ المقولة منذ زمن.

ثم قالت :

= كافكا كان محقًا، لكن لا تنسَ ما قاله **نيتشه**: *(من ينظر طويلاً في الهاوية، تنظر الهاوية إليه أيضًا)*

ضحك أندريه بصوتٍ خافت :

= إذن لنأمل ألا تنظر إلينا الليلة ..

قرب الفجر، خفّ الضوء في المختبر. أوريل بقي وحده

أمام الشاشات.

كان العالم كله خارج الجدران يتهيأ ليوم جديد، أما هو فكان يحفر في ليلٍ لا ينتهي.

فجأة خطرت على باله فكرة غريبة و مجنونة .. إن كل تسلسل من الأسس الآزوتية يوافق اصطناع حمض أميني معين من الحموض العشرين و يمكن ترميزه بحرف أبجدي مع إمكانية التكرار أحياناً .. لماذا لا يستعين بالذكاء الاصطناعي كي يحاول ترجمة جينوم آفا إلى كلمات و جمل محددة بناءً على ذلك ..

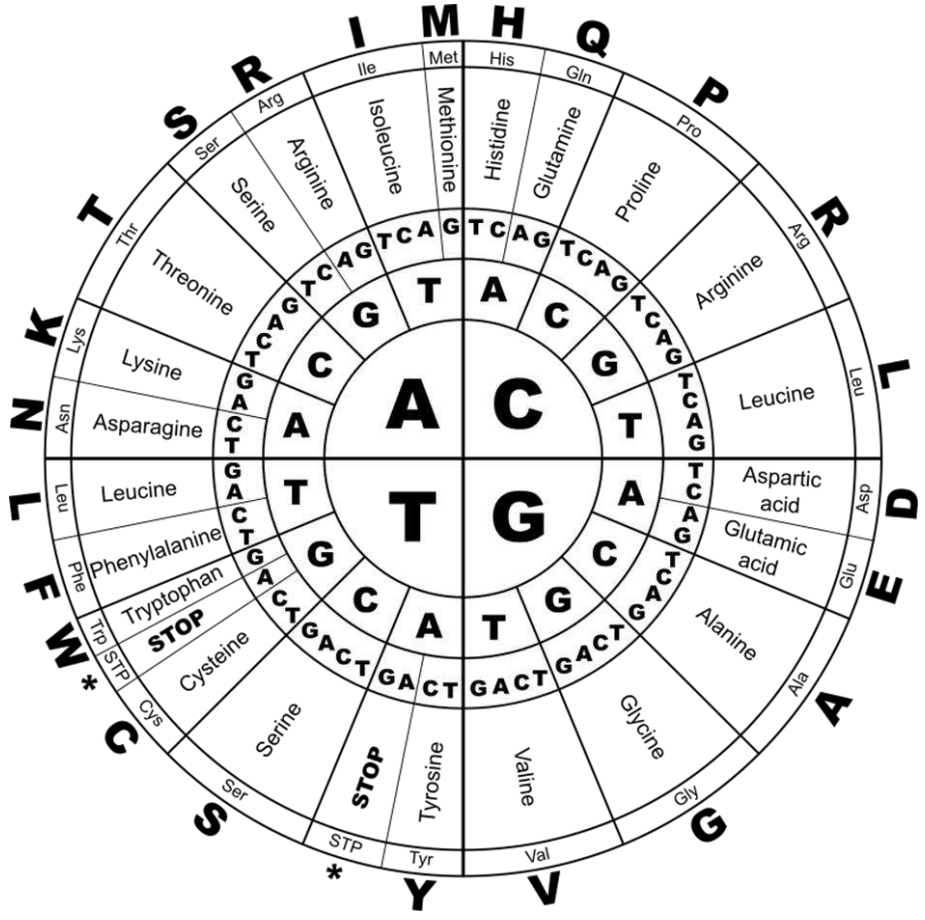

إنها خوارزمية بسيطة، مجنونة، بلا دليل علميّ، لكنها كانت كأنها نداء غامض في رأسه .. أدخل مقطعاً

صغيراً من جينوم آفا إلى برنامج الذكاء الاصطناعي و طلب منه إيجاد رابط بين الأسس الآزوتية و الأحماض الأمينية و الأحرف الأبجدية بناءً على التسلسل الكامل للجينوم البشري لآفا لتكوين كلمة أو جملة منطقية ..

النتائج بدأت تظهر كسلسلة من النقاط و الأشرطة المتتابعة ... ثم فجأة، تشكّلت على الشاشة كلمة واحدة :

(LIFE)

تجمّد الدم في عروقه.

حدّق في الشاشة طويلاً، غير مصدق.

هل كانت صدفة إحصائية ؟ خللًا برمجيًا ؟ أم أن الحياة فعلاً تكتب اسمها داخل نفسها ؟

همس في الظلام :

= هل تتحدثين إليَّ يا آفا ؟

تسرّبت أول خيوط الضوء عبر النوافذ العالية، فغمرت وجهه بشحوبٍ ذهبيٍّ.

فتح دفتره مجددًا، كتب سطرًا آخر :

(إنها .. إنها ليست شيفرة جينية ... إنها نصّ غير مترجم. الحياة ليست علمًا فقط، بل أدب لم يُكتب بعد)

أغلق الحاسوب بيد مرتجفة .

في تلك اللحظة، لم يكن يدرك أن ذلك السطر سيكون بداية انهيار العالم الذي يعرفه ، و لا أن كلمة **LIFE** الصغيرة تلك ستقوده يومًا إلى مواجهة القدر نفسه وجهًا لوجه لفهم الحياة برمتها و رفع النقاب عن أسرارها.

الفصل الرابع

خنجر القدر

تجهّزت زويا بحقيبتها الصغيرة على كتفها كما لو كانت تحمل على ظهرها آخر ما تبقّى من أحلامها. ألقت نظرة طويلة على شقتها في سان فرانسيسكو، تلك الزاوية التي احتوت فوضاها، وحدتها، وكؤوس القهوة التي لم تُغسل بعد، ثم أغلقت الباب بصمتٍ يشبه إيماءة وداعٍ بين عاشقين أنهكهما الحب.

لم تكن تودّع جدرانًا من إسمنتٍ وزجاج، بل جزءًا من ذاتها. فالمدينة كانت مرآتها، وضبابها كان غطاءً لروحٍ تخاف أن تُرى على حقيقتها.

عبرت بسيارتها على الجسر الذهبي الشهير، كانت الغيوم الممزقة تعكس اضطرابها الداخلي، كأن السماء نفسها تمشي فوقها بقلقٍ لا تعرف له سببًا.

لم يكن أحد ينتظرها، ولم يكن أحد يعرف أن رحلتها لم تكن بحثًا عن الطبيعة، بل عن ممرٍ للهروب من نفسها.

الطريق نحو **جبال سييرا نيفادا** امتدّ أمامها كلوحة رسمها عقلٌ بين اليقظة والحلم. الأشجار بدت كجنودٍ حراسٍ على بوابات الأسرار، والأنهار تلمع كعروق الأرض التي ما زالت تنبض بدم الحياة الأولى. في أعماقها، كان هناك شعورٌ غامض بالتحرّر، وآخر أكثر غموضًا بالرهبة.

كل ميلٍ على الطريق كان انسلاخًا عن العالم القديم، وكل خطوةٍ نحو قلب الجبال كانت اقترابًا من حافةٍ لا

تعرف إن كانت خلاصًا أم سقوطًا.

مع الفجر الأول، بدت الغابة كجنةٍ منسية لم يطأها الزمن بعد.

كانت الرائحة الرطبة للصنوبر تختلط بأنفاس الريح، والعصافير تبعث موسيقاها بين الأغصان العالية، فيما خرير الشلال القريب بدا كنداءٍ أول للخلق.

جلست قرب الماء، قدماها تلامسان برودة النهر، تشعر بأن العالم يغسل عنها غبار المدينة. أغمضت عينيها وتنفّست ببطء، كمن يتذوّق طعم الحياة للمرة الأولى.

ذكّرتها تلك اللحظة بقول **مارسيل بروست** :

(الحياة الحقيقية لا تبدأ إلا عندما نتعلم أن نرى الأشياء البسيطة بعينٍ جديدة)

ابتسمت، وشعرت أن ما كانت تبحث عنه ليس سوى هذه القدرة البسيطة على الرؤية ، أن ترى الضوء وهو

يقبّل سطح الماء، والريح وهي تهمس بأسرارها، والوجود وهو يعزف على وترٍ واحدٍ من المعنى.

أخرجت كمانها الصغير، وأطلقت أنغام **فيفالدي** و مقطوعته البهيجة (**الراهب الأحمر**) في الهواء. كانت الأصوات تتراقص مع حفيف الأشجار، وتتمازج مع صدى الشلال حتى بدا أن الطبيعة كلها تصغي إليها و تشاطرها الفرح . في تلك اللحظة، تذكّرت قولاً آخر **لنيتشه** :

(نحن نملك الفنّ كي لا نموت من الحقيقة)

ربما كانت الموسيقى هي الطريقة الوحيدة التي استطاعت بها زويا أن تبقي نفسها حيّة، أن ترتّب الفوضى التي تعصف بها منذ زمنٍ لم تعرف متى بدأ.

عزفت وكأنها تكتب سيرة ذاتها في نغمة، وتبكي بلا دموع.

و مع غروب الشمس، أضرمت النار قرب خيمتها، وقرأت من رواية (متاهة الأرواح) **لكارلوس زافون** التي كانت تحملها منذ أسابيع فتاهت بين الأسطر، بينما السماء تتلون بدرجات من البرتقالي العميق حتى البنفسجي الغامق. تلك الليلة، شعرت بأنها أخيرًا وجدت سلامها الذي تبحث عنه لكنها كانت تجهل أنه ليس سوى هدوء يسبق العاصفة.

فمع أنفاس الليل الأخيرة، تبدّل كل شيء.

كانت السماء قد أطفأت نجومها حين استيقظت بقلب منكمش على صوتٍ غريبٍ قرب خيمتها ، وقعَ خطواتٍ ثقيلةٍ بطيئةٍ تقترب، كأن أحدهم يتعمد أن تُسمع. فتحت عينيها، ووجدت الظلال تتحرك خلف جدار القماش الرقيق، ووميض المصباح الصغير المعلق في الخارج يرسم هيئة رجلٍ غريبٍ يتقدّم بخطواتٍ محسوبة.

تصلّب جسدها في مكانه، والهواء بدا فجأة أثقل من أن يُستنشَق. قلبها خفق بعنفٍ حتى شعرت أن صوته يملأ الخيمة. كل شيء فيها أراد أن يصرخ، لكن الصوت خذلها.

رأت من خلال القماش المشدود كفّه الملوّثة بالتراب تمتد نحو باب الخيمة، ثم سُمِع صوت السحّاب المعدني وهو يُفتح ببطءٍ مروّع، صوتٌ أشبه بتمزيق نسيج الليل نفسه. دخل الضوء الخافت من الخارج أولًا، ثم تلاه وجهه ، وجهٌ قميءٌ مشوّه الملامح، تلوّثه لحية غير مهذبة وابتسامةٌ سايكوباثيّةٌ باردة، كأنها لا تخصّ بشرًا بل كائنًا بلا ضمير.

لم يقل شيئًا، ولم تقل هي شيئًا.

كل ما سُمع هو أنفاسها المتسارعة، مضطربةً حدّ الارتجاف.

عيناها تتسعان، يداها ترتجفان على بطانية خفيفة تحاول أن تتشبث بها كدرعٍ وهمي. حاولت النهوض، لكنه انقضّ عليها فجأة، ثبّتها بقسوةٍ على الأرض، كأنما يريد أن يسحق الهواء في رئتيها. صرخت، استغاثت، توسّلت أن يتركها، لكن الغابة كانت صمّاء لا تصغي، لا أحد سواها والظلام والوحش المتجسّد في هيئة إنسان.

كل ثانية كانت دهراً من الرعب. كانت تتلوى محاولةً الفكاك، لكن قبضته الحديدية وُلدت من حقدٍ لا يُفهم.

لم يكن اعتداءه مجرد فعلٍ جسدي، بل كان طمسًا لكل ما آمنت به عن الطيبة، عن الأمان، عن إنسانية العالم. وفي تلك اللحظات، تهاوت كل القيم دفعةً واحدة،

و أظلمت في أعماقها شمسٌ كانت تضيء حياتها.

وحين انتهى، تركها كما يترك الذئب فريسته، وخرج بخطواتٍ بطيئةٍ كما دخل. بقيت هناك، جسدها يرتجف بلا توقف، وعقلها يرفض التصديق. ثم، ببطءٍ، وكأنها تخرج من حلمٍ ثقيلٍ، زحفت نحو باب الخيمة، سحبت نفسها إلى الخارج، وبدأت تركض.

هربت في الظلام ، خشيت عودته مجدداً، عارية القدمين، تتعثر في الجذوع والحجارة، والدم والعرق يمتزجان على بشرتها الخلاسية. كل خطوة كانت وجعًا، وكل وجع وعدًا بالنجاة. ركضت بلا اتجاه حتى لاح لها خطّ من الأضواء المتحركة البعيدة على الطريق السريع.

انزلقت على المنحدر حتى وصلت إلى حافة الطريق،

ولوّحت بذراعها بجنون. توقفت سيارة مارقة، نزل منها رجل وامرأة في ذهول، أسرعا إليها حين رأيا وجهها الملطخ بالطين والدم، بالكاد قادرة على الكلام. لم تحتج إلى شرح، كان الخوف في عينيها و جسدها المخضّب بالطين و الدماء أبلغ من أي جملة.

أقلّاها إلى مركز الشرطة القريب، وهناك انهارت بالكامل .. الكلمات خرجت متقطعة، مرتجفة، بينما يداها ترتعشان كمن يحاول الإمساك بما لا يمكن الإمساك به .. تحدثت عن ذاك المختل ، كيف اعتدى عليها و هرب .. ثم نُقلت إلى المشفى، حيث خضعت لفحص شامل للكدمات والجروح الناتجة عن الاعتداء و مقاومته و الفرار في الغابة. كل أثر على جسدها كان صرخة صامتة، وكل نظرة من الأطباء كانت كطعنة تذكّرها بما حدث دون أن يُقال .. أما الشرطة فانتشرت في مكان التخييم تبحث عن آثار لذاك المختل .

لم تكن تشعر بجسدها، ولا بالزمن. العالم كله صار صوتًا بعيدًا، غامضًا، كأنها تغرق في مياه كثيفة لا يمكن التنفس فيها.

حين عادت إلى سان فرانسيسكو، لم تعد المدينة كما كانت.

الأبنية الرمادية بدت أكثر برودًا، والضباب لم يعد

رومانسيًا، بل ستارًا يخفي العالم عن عينيها.

دخلت شقتها بخطواتٍ مترددة، أغلقت الباب، وأسندت ظهرها إليه. كل شيء حولها بدا صغيرًا، مختنقًا، حتى الهواء صار ثقيلًا.

الكمان فوق الطاولة كان ينظر إليها بصمتٍ كاتهامٍ خفي، كأن أوتاره تعرف ما حدث. مدت يدها نحوه، لكنها توقفت في منتصف الطريق ، لم تعد قادرة على لمس الموسيقى.

في داخلها كانت تسمع صدى قول **بورخيس** :

(الكلمات رموزٌ لأشياءٍ لا يمكن أن نراها، والموسيقى رموزٌ لأشياء لا يمكن أن نقولها)

ولأنها لم تعد ترى ولا تقول، صارت هي نفسها صمتًا مطلقًا.

مرت أيام، أسابيع، وهي عالقة بين النوم واليقظة .. لم تخبر أحداُ بقصتها حتى أبويها ، إذ كانت تشعر بنفسها كجانٍ لا كضحية .. و أنّ العار يحيط بجسدها كأفعى سوداء ملتفة .

كانت تجلس أمام المرآة، تحدّق في وجهٍ لا تعرفه.

لم تعد تلك الفتاة التي خرجت نحو الجبال لتبحث عن الحرية، بل امرأة خرجت من الغابة وهي تحمل داخلها غابة أخرى، أكثر ظلمةً، وأكثر اتساعًا.

كانت تشعر أن العالم أصبح مسرحًا مهجورًا، وأنها الممثلة الأخيرة بعد أن انطفأت الأضواء وسقط الستار.

في ليلةٍ أخرى، جلست على الأرض وفتحت دفترها الصغير.

الصفحات كانت فارغة، لكنها شعرت أنها تنظر إليها كعيونٍ تتهمها بالصمت. حاولت أن تبصق صرخات روحها على أوراقه الصفراء، أن تطهّر نفسها بالحبر، لكن الكلمات عصت عليها.

لم يكن في داخلها سوى سؤال واحد يتكرر بلا إجابة :

(لماذا أنا ؟)

ومع كل نسمة تهب من شق النافذة، كانت تسمع صدى قلبها الخافت كأنّه يقول :

(لأنك بحثت عن نفسك... و لن تعثري على الإجابة إلا بعد أن تفقدي كل شيء)

ثم حلّ السكون التام.

لا عزف، لا دموع، لا نوم.

فقط ظلامٌ يسكنها، ظلامٌ يشبهها.

الفصل الخامس

السرّ إذا جاوز الاثنين شاع

كان الصباح في ستانفورد بارداً ومضيئاً كحدّ السكين.

المدينة تستيقظ على ضبابٍ رماديٍّ يتسلّل بين الأشجار، والمختبر رقم **12** في قسم الجينوم أشبه بخلية نحلٍ استيقظت فجأة على خبرٍ غريب : **أنّ الحياة، ربما، تعرف كيف تكتب اسمها.**

أوريل كاين لم ينم تلك الليلة. جلس على الكرسي أمام نافذة تطلّ على ساحة الجامعة، يحتسي قهوته المرة ببطء كمن يتجرع ذنباً و يوقظ فكرة.

الكلمة التي ظهرت على الشاشة - **LIFE** - كانت لا تزال ترنّ في رأسه كجرسٍ خفيٍّ يدقّ من داخل عصبٍ في روحه.

كان الصباح يضرب زجاج المختبر بوميضٍ باهت، بينما تتراقص جزيئات الغبار في الضوء مثل أفكارٍ مترددة بين الوجود والعدم.

في تلك اللحظة، لم يكن أوريل يرى أمامه مجرد شاشة. كان يرى مرآةً داخلية تُعيد إليه وجهه حين كان شاباً في بداياته، حين كان العلم وعدًا طاهراً، لا تجارة ولا سلطة ولا رهبة من لجان الأخلاقيات.

تذكّر يوم قَبِلَ أول منحة من مؤسسة **GenSys**، وكيف صافح **ماركوس شتاين** مبتسمًا، يومها قال له

الرجل بصوتٍ يشبه النصل :

= كل اكتشافٍ عظيمٍ يحتاج من يدفع ثمنه. نحن سندفع عنك ... لكننا سنكون شركاء في الحقيقة ..

الآن، بعد سنوات، كان يفهم تمامًا ما تعنيه تلك الجملة.

دخل أندريه، يجرّ معه صدى خطواتٍ متثاقلة، وقال :

= لقد أرسلتُ الشيفرة إلى ميران. طلبت أن تراك فورًا. تقول إننا أمام اكتشافٍ مدويّ سيغيّر قواعد اللعبة جذرياً

رفع أوريل رأسه بصمتٍ ثقيل، وكأنه لا يحتاج أن يسمع تصديقًا لما يعرفه في أعماقه.

قال أخيرًا :

= كل ما أخشاه يا أندريه ... أن يكون ما اكتشفناه أكبر من قدرتنا على الفهم ..

أندريه، الذي أمضى نصف عمره بين التجارب الفاشلة، كان يرى في وجه أوريل شيئًا غريبًا : مزيجًا من الإيمان واليأس.

تقدّم نحوه وقال بثقة من فشل ألف مرة و لم يستسلم :

= أحيانًا يا صديقي، المعرفة لا تنقذ أحدًا. إنها فقط تخلع عنا البراءة ..

ابتسم أوريل ابتسامةً باهتة :

= أعرف .. لكن الجهل لا يُنقذ أبداً .. أقبل بنصف كأس ممتلئ على آخر فارغ كلياً ..

بعد ساعة، اجتمع الثلاثة في غرفة الزجاج الكبرى، تحيطهم شاشاتٌ تومض كنجومٍ داخل مجرة من الأسلاك.

وضعت ميران ملفّاتها على الطاولة وقالت، بعينين تشعّان بقلقٍ ذكيّ :

= لقد حللتُ النمط بالكامل. التكرارات ليست عشوائية. إنها تتبع بناءً نحويًّا ..

أندريه قاطعها :

= نحويًّا ؟

= نعم، كما في اللغات الطبيعية. هناك وقفات، فاصلات، إعادة في الإيقاع. إنها لغة ما. ليست من

صنع الصدفة.

الهواء في الغرفة بدا ساكنًا كقلبٍ توقف عن الخفقان.

كل ما كان يرمز إلى "علم" بدأ يتحوّل إلى "وحي".

ميران تمتمت :

= ربما هذا ما قصده **برغسون** حين قال إن الحياة طاقة تكتب نفسها من الداخل.

لكن أندريه لم يكن في مزاجٍ فلسفي. ضرب الطاولة بقبضته وقال :

= وهل تدرين ما يعني هذا؟ إذا كانت الجينات تكتب، فسيطالب الناس بقراءتها ... وقد يطالب آخرون بكتابتها من جديد.

فتح أوريل يديه بتردد، و قال كمن يعترف بشيءٍ محظور:

= جربتُ مع الفجر تحويلها بنظام شبيه بمورس.

فأعطتني كلمة مفهومة .. **LIFE**.

ساد الصمت لثوانٍ طويلة.

ميران وضعت يدها على فمها، وأندريه تراجع في كرسيه.

همست ميران :

= أوريل هل تعي معنى ذلك ... هذا يعني أن المادة الحيوية تكتب، تفكر، تترك أثراً لغويًا ...

في تلك اللحظة، فُتح الباب بهدوء.

دخل رجل في منتصف الخمسينيات، أنيق المظهر، بملامح أوروبية صارمة.

كان **ماركوس شتاين**، المدير التنفيذي لمؤسسة **GenSys** المموّلة للمشروع.

ابتسامته لم تكن ودّية، بل محايدة كالمشرط.

قال بصوتٍ منخفض لكنه نافذ :

= سمعت أنكم تعملون على شيءٍ مثير ... وربما خطير.

أوريل اعتدل في جلسته :

= ما نقوم به بحث أساسيّ، لا أكثر.

= بحث أساسيّ ؟ إذن لماذا وصلتني اليوم رسالة من

أحد موظفي القسم تشير إلى أنكم أدخلتم خوارزميات غير معتمدة في النواة المركزية ؟

أندريه حاول الردّ، لكن ماركوس رفع يده مقاطعًا :

= أنتم تعلمون ما معنى هذا، دكتور كاين. أي تعديلٍ خارج البروتوكول سيوقف التمويل فورًا، بل وربما يفتح تحقيقًا في لجنة الأخلاقيات.

كانت نبرة صوته أشبه بتوقيعٍ على حكمٍ مؤجل.

في عينيه لم يكن الغضب، بل اليقين البارد الذي يحكم به البيروقراطيون على الحالمين.

نظر أوريل إلى الأرض. كان يشعر أنه يقف على حبلٍ مشدود بين اكتشافٍ قد ينقذ ابنته وبين نظامٍ مؤسسيٍّ لا يرى في العلم إلا رصيدًا ماليًا.

قال ببطءٍ :

= سيد ماركوس، نحن لم نتجاوز شيئًا بعد. فقط نحاول أن نصغي لما يقوله الجينوم.

ردّ شتاين بابتسامةٍ باردة :

= المؤسسة لا تموّل الشعراء دكتور كاين. إذا أردت أن تصغي إلى الحياة، افعل ذلك على نفقتك الخاصة.

غادر الرجل بخطواتٍ ثابتة، تاركًا وراءه هواءً من الخوف والتهديد.

قال أندريه وهو يزفر:

= إنه لا يفهم. لا أحد يفهم أن ما نلمسه الآن ليس مجرد علم. إنه بابٌ جديد إلى عالم لم يطأه عقل من قبل.

أوريل همس، كمن يحدّث نفسه :

= حين تكتشف اللغة التي تكتب بها الحياة، سيخاف الجميع. لأن أول من يسمعها ... يدرك أنه ليس سيدها.

****

مرّت أسابيع قليلة بعد تلك المواجهة و قد تجمّد البحث.

خلالها عاش أوريل في قلقٍ دائم؛ الرسائل الرسمية تتوالى، الاجتماعات تُستدعى، والميزانية تُراجع بندًا بندًا.

في كل مرة يدخل فيها المختبر، كان يشعر أن العيون تلاحقه ، الكاميرات، الزملاء، وحتى الأجهزة.

بدأت تصل إليه إشارات من موظفين مجهولين بأن بعض الخوادم صارت تُنسخ سريًا إلى مقارّ خاصة تابعة للمؤسسة.

كأن هناك شيئًا يُسحب من بين يديه دون علمه.

في المساء، كانت ميران تراقبه بصمتٍ من خلف الزجاج.

سألته ذات مرة :

= هل تشعر أنك تقترب من شيءٍ ... أم أنك تبتعد عنه أكثر ؟

أجاب بعد صمتٍ طويل :

= كمن يحفر في الجليد بحثًا عن قلبٍ لا يعرف إن كان ما زال يخفق.

في تلك الأثناء، وفي مكانٍ آخر من سان فرانسيسكو، كانت امرأة في منتصف الثلاثينيات تُقلب بين أوراقٍ وصورٍ على شاشة حاسوبها.

إيفا بيل ، الصحفية التي لا تؤمن بالمصادفات.

كانت تعمل في مجلة (ساينس فوكس) المعروفة، وقد وصلها ملفّ غامض عبر بريدٍ مشفّر.

المرسل : مجهول.

الملف يحمل عنوانًا واحدًا :

(**LIFE PROJECT — INTERNAL DATA**)

جلست أمام النافذة تستمع إلى المطر وهو يضرب الزجاج، بينما تسمع التسجيل المسرّب من أحد موظفي المختبر :

(لقد جعلوا الشيفرة تتحدث ...)

رفعت رأسها نحو نوافذ المبنى المعتمة.

استمعت للشريط بالكامل ثم كتبت في دفترها بخطٍّ دقيق واثق :

(مشروع LIFE ، هل يتحدث الجينوم ؟ أم أننا نحن الذين بدأنا نخترع أصواته ؟)

لم تكن تعلم بعد أنها على وشك أن تدخل دوامة من الأسرار قد تغيّر مفهوم الإنسان ذاته.

في المساء، جلس أوريل وحده في المختبر.

الضوء البارد من الشاشات انعكس على وجهه، وجعل ملامحه تبدو كوجه رجلٍ يترنّح بين الحياة والموت.

فتح الملف مرة أخرى. أدخل البيانات الجديدة من تحاليل ميران إلى الذكاء الاصطناعي.

التكرار ازداد دقة.

النظام اللغويّ بدأ يتضح أكثر.

لكن هناك كلمة جديدة تشكّلت أسفل الشاشة هذه المرّة ، لم تكن **LIFE** .. بل : **WARNING**.

ارتجف قلبه.

تراجع في كرسيه ببطءٍ، ثم همس :

= هل يمكن أن تكون الحياة نفسها ... تحذرنا ؟

في تلك اللحظة، انطفأ الضوء فجأة في المختبر، وبقيت الشاشة الأخيرة وحدها مضاءة، تعرض جملة متقطعة كنبضٍ في الظلام :

Your life written on DNA

حياتك كتبت على جزيء ال د.ن.ا

كان الليل قد عاد إلى سان فرانسيسكو ،لكن هذه المرة لم يكن شالًا من رماد، بل ستارًا يخفي ما هو أعمق من

الخوف : الظلّ الذي يسكن داخل العلم حين يقترب كثيرًا من جوهر الخلق.

الفصل السادس

صراع مع الذات

في شقتها الصغيرة، حيث النوافذ مغلقة والستائر كثيفة كأنها جفنين أُغلقا عن العالم، كانت زويا تجلس على الأرض، مسندة ظهرها إلى الجدار كأنها تتكئ على آخر ما تبقى من ذاتها. الظلام لم يعد حالةً خارجية، بل صار امتدادًا داخليًا، مرايا صامتة تعكس ما يجري في أعماقها. الهواء ساكن، والغبار يرقص ببطء فوق شعاع مصباحٍ خافتٍ لم يعد يعرف إن كان نورًا أم ظلًا يحاول التمثّل.

لم تعد تعرف الأيام بأسمائها. الزمن صار مجرد دوامة رمادية لا يميز فيها الصباح من المساء. الاستيقاظ لم يعد بداية يوم، بل استئنافًا لحكمٍ مؤبد. كانت زويا

تستيقظ كل صباح على صمتٍ ثقيلٍ كأن المدينة قد توقفت عن التنفس. وفي داخلها، شيء يشبه الفزع البارد الذي يسبق الانهيار.

لقد تركت عملها دون وداع، كما يترك الحالم سريره في الكوابيس . كتبت بريدًا مقتضبًا : (أحتاج إلى وقتٍ للراحة) ، ثم أغلقت الحاسوب كمن يطوي فصلاً من حياته لا يريد قراءته ثانية. لم يكن هناك غضب، بل فراغ مطلق. الفراغ الذي لا يتسع حتى للندم.

الاعتداء في الغابة لم يكن حادثةً في الماضي، بل حيوانًا ما زال يتنفس في حاضرها. كلما حاولت نسيانه، تمدد في روحها أكثر. كانت تسمع خرير الماء في المطبخ فيذكرها بشلالٍ قريبٍ من خيمتها تلك الليلة، وتشمّ رائحة المطر فترى نفسها تهرب في الوحل، والريح تصفع وجهها وهي تصرخ بصوتٍ لم يسمعه أحد.

في كل مرّة تنظر فيها إلى المرآة، لا ترى ملامحها بل ملامح أخرى، امرأة تعرفها جيدًا لكنها لا تعرف نفسها فيها. تقول في سرّها : *(لستُ أنا تلك التي كانت تعزف الكمان وتضحك للسماء. أنا الآن ظلٌّ فقد صوته)*

جسدها صار ذاكرة. ذراعاها تحملان قسوة ما فُرض عليهما، وصدرها يختزن شهقاتٍ لم تخرج بعد. في

لحظاتٍ نادرة، كانت تفكر في ما قاله أحد الفلاسفة : *(الألم ليس ما يحدث لنا ، بل ما يبقى فينا بعد أن يحدث)* .. كانت تلك العبارة كافية لتجعلها تبكي دون صوت، لأنها كانت تفهمها بالكامل.

العار الذي يحاصرها لم يكن من فعل الآخرين، بل من نظرتها هي لنفسها. تشعر أنها ملوثة، كأن يدًا غريبة تركت عليها بصمة لا تُمحى. في مجتمعٍ يرى الألم ضعفًا والضعفَ فضيحة، أصبحت زوياً خرساء، تتحدث فقط في الداخل. تقول لنفسها : *(لماذا لم أصرخ أقوى ؟ لماذا لم أهرب أبكر؟)* ثم يرد عليها صوتٌ آخر أكثر ظلمة : *(لأنك كنتِ ضحية، والضحايا لا يملكون حرية الاختيار)* .. لكنها ترفض الاقتناع بذلك ..

كانت تعرف بالعقل أن ذلك صحيح، لكنها لم تستطع أن تصدّق عقلها و لا حتى قلبها. فالخجل أقوى من المنطق. وكان الخجل عندها كالملح على الجرح : يمنع الالتئام لكنه يذكّرها بأنها ما زالت تشعر.

تجولت أفكارها بين الفلسفة واليأس كما تتجول يد الغريق في الماء. تتساءل : *(ما الغاية من الوجود إذا كان كل ما نبنيه يمكن أن ينهار في ليلةٍ واحدة ؟ هل نحن حقًا أحرار، أم أننا نُقاد بلا وعي نحو مصائرنا ؟)* تحولت مقولة **مارسل بروست** : *(الحياة الحقيقية لا تبدأ إلا عندما نتعلم أن نرى الأشياء البسيطة بعينٍ جديدة)* إلى مرارة : *(لكن ماذا لو لم يعد في الأشياء البسيطة ما يُرى ؟ ماذا لو تحولت البساطة نفسها إلى عبءٍ لا يُحتمل ؟)* ..

كانت تشعر أن روحها القديمة تنكمش. **لم تعد تؤمن بالشفاء، ولا بالعدالة، ولا حتى بالحديث عن الأمل.** الأمل، بالنسبة إليها، صار كلمةً يستخدمها الأحياء لتجميل فكرة البقاء. أما هي، فترى أن البقاء بلا معنى لا يختلف كثيرًا عن الموت البطيء.

تعيش الآن ككائنٍ خارج الزمن. القهوة تبرد قبل أن تتذوقها، الأوراق البيضاء أمست صفراء بعد أن هجرتها الكلمات، والموسيقى صارت جرحًا يذكّرها

بمن كانت. كل زاويةٍ في شقتها تحولت إلى شاهدٍ صامت على انطفائها. حتى صوت الثلاجة الصغيرة صار يؤرقها، كأنه يذكّرها بأن الحياة تستمر رغم أنها توقفت منذ زمن.

كانت تفكر أحيانًا بالموت لا كخلاص، بل كاستراحةٍ من التفكير. لم تعد تملك الطاقة لتخاف. الخوف يحتاج إلى رغبة في النجاة، وهي لم تعد تملكها. كانت تهمس لنفسها بيأس :

(ربما ليست الحياة من تتركني، بل أنا من تركتها دون أن أودّعها)

وفي أعماقها، كانت تدور معركة صامتة بين صوتين : الأول يهمس بالاستمرار، بالتمسك حتى لو لم يبقَ سوى الرماد. والثاني، أقوى، أكثر صدقًا، يقول : لقد تعبتِ بما يكفي، نامي.

المدينة خلف نوافذها لم تعد تشبهها. أصوات الناس، ضحكاتهم، السيارات المسرعة ، كل شيء بدا بعيدًا، كما لو أنها تعيش في عالمٍ آخر لا يُرى. كانت تنظر إلى الشوارع المبتلة بالمطر، وتفكر : (كم من الأرواح تمشي هنا ولا يلاحظها أحد ؟ كم من النساء يحملن صمتهن مثل قنابل غير قابلة للتفجير ؟)

كل يوم يمرّ كان يزيدها قناعة وهمية أن المجتمع لا يسمع إلا من يصرخ بأعلى صوته، وأن الناجيات مثلها يُعاقبن بالصمت مرتين : مرة حين يُنتهك جسدهن، ومرة حين لا يُصدقن إن تكلمن ..

بدأت تكتب رسائل لا ترسلها. إلى نفسها، إلى الرجل الذي أذاها، إلى الله، إلى فكرة العدالة ذاتها. كل رسالة تبدأ بجملة واحدة : (أنا لم أعد أفهم الغاية) .. ثم تتوقف، لأن الكلام كان يستنزفها أكثر مما يريحها.

في إحدى الليالي، جلست على الأرض وسط الشقة. المطر يقرع الزجاج بنمطٍ متواتر، كأنه نبض العالم. كان الهواء ثقيلاً، ورائحة العفن تمتزج برائحة عطرٍ قديمٍ لم تستطع التخلص منه. أغلقت عينيها.

قالت بصوتٍ خافت :

= لقد انتهيت .. لا رغبة لي في الغد .. سأنهي بنفسي

هذه المعاناة ..

لم تكن تلك عبارة انتحارية بحد ذاتها ، بل جملة اعتراف. نوعٌ من التسليم البطيء بأن العالم لا يمدّ يده لمن سقط. صارت الحياة بالنسبة إليها أشبه بكتابٍ انتهت صفحاته ولم يبقَ فيه سوى الغلاف.

لكن حين مالت برأسها نحو الحائط، شعرت بشيءٍ غريب. خيطٌ من الضوء تسلل من نافذة صغيرة نسيت أن تغلقها ، خطٌ رفيع من النور عبر الغرفة وسقط على وجهها. فتحت عينيها، لم تفهم ما الذي جعل الضوء يظهر، فالسماء كانت غائمة منذ الصباح.

لم يكن الضوء قويًا، بل كان هشًا، وديعًا، كأنّه يتردد قبل أن يلمسها. ومع ذلك، أحست به في عمقها، لا في جلدها. مرّ النور على خدها كلمسةٍ لا تُفسَّر، كأن شيئًا

ما في الكون أراد أن يقول لها : ما زال فيكِ شيءٌ لم يمت.

لم تبكِ. فقط نظرت إلى الخط الرفيع من الضوء حتى بدأ يتلاشى، ثم همست بصوتٍ لا يكاد يُسمع :

= لا أستطيع أن أفهم غايتك ، لكنك عاجز رغم جمالك أن تبدد الظلام في أعماقي .. أنا انتهيت و لا معنى للغد بعد اليوم ..

الفصل السابع

صدمة مدوية

عندما نقل أوريل كاين مشروعه الجديد إلى مختبره الخاص في منزله تجنباً للمواجهة المحتمة مع ماركوس شتاين، شعر بأن الزمن قد انكسر وانقلب على نفسه. لم يعد المنزل مجرد مأوى، بل أصبح عالمًا صغيرًا يحوي أبعادًا لا تراها العين العادية، مكانًا تتقاطع فيه فكرة الجينوم مع فلسفة الحياة والقدر، حيث تصبح كل زاوية شاهدة على ولادة أسئلة جديدة، وكل شعاع ضوء من المصابيح يتوهج كأنه يحرس الأسرار. الهواء في المختبر كان مشبعًا برائحة المعدن، الورق، والأحلام؛ مزيجٌ من الواقع والخيال الذي يلتقي في نهايات الخوارزميات. كل تفصيلة في الغرفة كانت تعكس اختلاطًا بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث الجدران نفسها تشهد صراع العقل مع الغيب، والصمت يتحدث بلغة العيون الغارقة في التفكير.

كاين وقف أمام شاشة الكمبيوتر الضخمة، يراقب سلسلة النيوكليوتيدات التي تتلو نفسها بطريقة لم يرَ مثلها من قبل. كل حرف كان يحمل ثقل الكون كله، وكل تتابع من الأربع أحرف كان يخزن قصة الخلية، ذاكرة الحياة، ومصائر المستقبل. كانت الخلايا تتحدث إليه بصمتها الخاص، تصرخ بلغة الأحماض النووية و الأمينية، تقول: *(افهمني و ستفهم كل شيء عندها ، فالخوف والأمل والحب مكتوبون في داخلي)*

كان يشعر أحيانًا أن كل نبضة في قلبه تتوافق مع نبضة خفية داخل الشيفرة، وكأن الكون نفسه يراقبه ويتوقع قراءته للغيب.

أندريه، بجانبه، يحرك أصابعه على لوحة المفاتيح وكأنها مفاتيح بيانو، يترجم البيانات إلى شيفرات يمكن للآلة أن تفهمها متكلاً على عبقرية الذكاء الاصطناعي. أما ميران، فكانت تمشي بين الطاولات بصمتٍ دقيق، عيناها تراقب العينات وكأنها تطارد لغزًا قديمًا يرفض الظهور. قالت بهدوء :

= كل خلية تحوي سرًّا، وكل سرّ له توقيت، وكل توقيت له عواقب لا ندركها إلا حين تنكشف.

كاين نظر إليها بعينين يختلط فيهما الأمل بالخوف :

= سنكشف ما كتبته الحياة في **DNA** ابنتي، كل حرف، كل نمط، كل تكرار سيترجم إلى لغة مفهومة بعد أن أدخلنا جينومها الكامل إلى التطبيق .

علّق أندريه دون أن يشيح بوجهه عن الشاشة :

= لكن هل نحن مستعدون لمواجهة الحقيقة كما هي، بلا قناع ؟ هل يمكن للإنسان أن يتحمل لغة الخلية حين تُحكى بلا تجميل ؟

ابتسمت ميران، ابتسامة حزينة تحمل خبرة سنوات في مواجهة أسرار الطبيعة :

= أندريه .. هذه ليست مجرد معلومات، إنها ذاكرة كاملة، لغة الكون في أصغر أشكالها. الحقيقة ليست سهلة، لكنها دائمًا موجودة. والوعي بها، إن لم يقتلنا، يجعلنا أحياءً بأكثر أشكال اليقظة قسوة.

بدأ الفريق العمل بلا توقف، ساعات مسائية طويلة عقب الدوام الوظيفي النهاري امتدت بلا حدود، حيث كانت الشاشات تنبض بالضوء الأزرق، كل نبضة منها تحمل وميضًا من المعرفة، كل تتابع من النيوكليوتيدات هو انعكاس لصوت الغيب الصامت. كانت الخوارزميات تتحرك، تحلل، تقارن، تحوّل البيانات إلى رموز، ثم إلى معاني محتملة، وكأن كل حرف من **G**، **A**، **T**، **C**، يحمل رسالة من الماضي والمستقبل في آن واحد، كأن الزمن كله متسلسل داخل خلية واحدة. كان كل اكتشاف جديد يقودهم إلى اكتشاف آخر، كما لو كانت الشيفرة نفسها تحاول تحديهم لمعرفة ما إذا كانوا قادرين على قراءة ما لم يُكتب بعد.

أيام وليالٍ امتدت حتى فقدوا الإحساس بالزمن. النوافذ أُغلقت لتبقى الأفكار مركزة، والأقمار الصناعية تعكس ضوءها على الشاشات كحراس صامتين. كاين شعر

أحيانًا أن الجينوم نفسه يراقبه، يهمس له مراراً و تكراراً : *(أنت تريد أن تحول جينوم ابنتك إلى كتاب حياة مقروء كي تعرف مستقبلها .. متى ستموت أو إن كانت ستنجو .. و أنا سأمنحك ما تريد)* .. كان كل تتابع من الأحماض النووية يبدو وكأنه رقصة متقنة، رقصة تتحرك بين الواقع والغياب، بين احتمال الخطر وإمكانية النجاة. و كان يتساءل هل الحياة التي تقرأها الشيفرة هي فعلاً المستقبل، أم أنها مجرد انعكاس محتمل بين طيات الزمن ؟

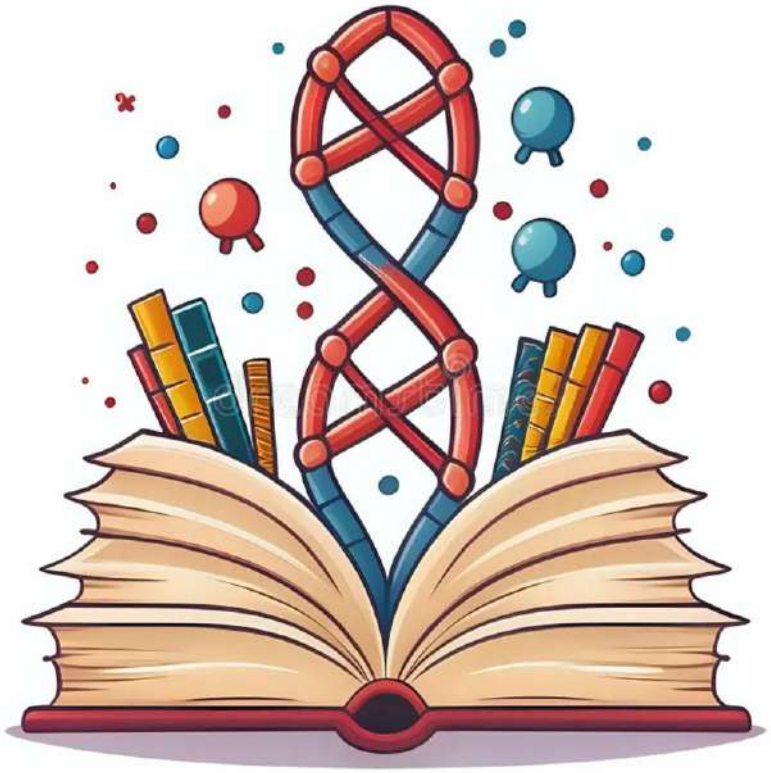

وبينما تتشابك البيانات وتتحول إلى نصوص يمكن قراءتها، بدأ شيء غريب يحدث. تتابع الأحداث في الشيفرة لم يكن عشوائيًا على الإطلاق، بل يتكوّن وفق نمطٍ مدهش يروي أحداث حياة آفا المفصلية .. سبقه

عقل كاين و قلبه إلى الختام كي يعرف ما ينتظر ابنته في المستقبل ، و هنا كانت الصدمة المدوية .. حياة آفا القصيرة للحين ، لم تكن مهددة بمرضها الخلقي ، بل بشيء آخر، شيء من عالم الواقع الملموس، **لم يكن مرضها هو ما سيقتلها، بل حادث سير قادم.** لحظة الاكتشاف كانت مثل صدمة كهربائية للروح؛ كل خلية في جسد كاين ارتجفت من هذا الإدراك .. فكر بيأس : *(كيف يمكن للعلم أن يكون أصدق من أي خوف شعوري ؟ وكيف يمكن للمعرفة أن تكون أشد قسوة من الخيال ؟)*

وقف للحظة، وأمسك رأسه بين يديه. الهواء في المختبر أصبح أثقل، كما لو أن كل خلية في جسده تعرف ما كشفته العينات. قلبه خفق بسرعة، لكنه كان ينبض أيضًا بشعور غريب من الفهم : **أن الحياة ليست دائمًا ما نظنه، وأن المعرفة لا تمنح القوة إلا بعد اختبارها بالصبر والتحدي ، و أن الجهل قد يكون أرحم منها رغم كل شيء.** كان يشعر بأن المصير نفسه قد سكب حقيقته في حضنه فجأة، بلا تمهيد، بلا رحمة.

= هذا ... هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ...

تمتم، صوته خافت كأن الكلمات نفسها تخاف من أن تُسمع. كانت الكلمات تتردد في المختبر وكأن الجدران نفسها صمتت لتستمع.

ميران وضعت يدها على كتفه بلطف ..

= العلوم أحيانًا تقول الحقيقة كما هي، بدون تهويل ولا تلطيف. لم يكن أحد ليختار هذا، لكنها الحقيقة التي رأتها العيون الجينية قبل أن تراها العيون البشرية. الحقيقة ليست حكمًا علينا، بل دعوة للفهم.

أندريه أدار الشاشة، وأظهر تتابع الجينوم الأخير، حيث حُدد نمط زمني دقيق :

(آفا ستموت في حادث سير بعد ثلاثين يوماً من الآن)

ثلاثون يومًا، وحدها، ستقرر المصير بحكم من الجينات ، كل رقم، كل فاصلة، كل حرف كان صاعقة وعي،

يفرض على القلب أن يفكر، على العقل أن يتحرك، وعلى الروح أن تبحث عن طريقة للبقاء.

قال كاين بصوتٍ يختنق بين الألم والخوف :

= ماذا عساي أفعل الآن ؟! كنت أكافح كي أجد علاجاً يطيل عمرها و يلجم مرضها .. لكن كيف أجنبها الموت بحادث لا سلطة لي عليه ؟!!

سادت لحظة صمتٍ طويل، يكاد فيها كل شيء يتوقف : الرنين الميكانيكي لأجهزة المختبر، خوارزميات التحليل، كلمات الذكاء الاصطناعي. كل شيء يفصح عن ثقل الاكتشاف. كاين شعر لأول مرة بأن المعرفة ليست قوةً كاملة، بل نذيرًا، أن معرفة المستقبل التي لا تمنح القدرة على تغييره تعذيب وحشي، وأن قلب الإنسان يظل قاصرًا مهما بلغ العلم من إتقان.

= ثلاثون يومًا...

همس، وكأن الكلمات تحاول أن تهبط إلى أعماقه.

= سنوات و أنا أحاول أن أحميها، أحاول أن أمنحها الغد، لكن حتى الغد نفسه كتب لي نهاية لم أتخيلها.

ميران اقتربت مرة أخرى، تنظر إلى السطور الأخيرة من الشيفرة و تتمتم:

= الجينوم للأسف ليس مجرد رمز للحياة، إنه نص القدر الذي نقرأه لأول مرة. كل خلية، كل حرف، كل نبضة، تقول للإنسان : *(تذكّر، لا شيء يُمنح من دون ثمن. المعرفة لا تأتي بلا مسؤولية، ولا الحب بلا فراق.)*

أندريه، الذي نادراً ما يصاب بالدهشة، نظر إلى كاين وقال :

= لقد عرفت الآن ماذا يعني أن يكون العلم مرآة للمصير. ليس مجرد معرفة، بل مسؤولية ثقيلة جدًا، ثقيلة بما يكفي لأن تطعن قلوبنا بالحقيقة.

كاين أغلق عينيه لبرهة، خمس سنوات انقضت من عمر ابنته .. تذكر ضحكاتها حين كانت تحاول التمرين على البيانو، تذكر لمسات يديها الصغيرة، كل لحظة من براءتها، كل نفس صغير ملأ البيت بالدفء. شعر برغبة في الصراخ، لكنه علم أن الصراخ لن يغير الواقع. صمت، واستمع إلى صدى صوته الداخلي، إلى همسات الخلايا التي تقول : *(هل يمكنك لي ذراع القدر المكتوب ؟!)*

أعاد فتح عينيه، وحدق في الشاشة كما لو كانت الباب الوحيد إلى الغد :

= سنستمر. سأحاول، مهما كانت الطريقة. سأحميها

بأي وسيلة أملكها. الجينوم كشف لنا الحقيقة، لكنها لن تفرض علينا ما سنفعله بعدها .

ثم قال، بلهجة أكثر فلسفية من أي وقت مضى :

= لن أسمح للقدر أن ينهي رواية آفا بحادث سير عابر .. سأحرص بنفسي على تجنيبها هذا المصير المأساوي ، سأهزم الموت و أمنحها سنيناً إضافية تستحقها بعد معاناتها ..

أندريه و ميران أطرقا النظر إلى الأرض ، كانا يعرفان أن صديقهم يعيش حالة من الإنكار ، لكن لم يتجرأ أي منهما على سلبه هذا الأمل الأخير و لو كان زائفاً ..

الليل حلّ على المنزل، والنوافذ أغلقت، لكن داخل المختبر كان الضوء الأزرق يتوهج كرمز غامض : الحياة تستمر، لكن ليس كما كنا نتصورها، ومعرفة الحقيقة ليست نهاية المطاف، بل بداية رحلة جديدة من الأسئلة، الحب، والمسؤولية، حيث يصبح العلم شاعرًا، والقدر موسيقيًا، والإنسان محور كل شيء، رغم هشاشته، رغم حبه العميق، ورغم خوفه من غدٍ لا يملك ضماناته .. إنّ مصير آفا الأسود المنتظر بعد شهر ألقى بظلاله على فرحة الاكتشاف العلمي الهائل الذي حققوه ، ترجمة جينوم الإنسان إلى كتاب يروي قصة حياته بكل أحداثها المفصلية ، و الذي – على الأرجح – سيغير مصير البشرية إلى الأبد .

الفصل الثامن

ترند التاريخ

لم تكن ذلك الصباح يشبه أي صباحات أخرى .

العالم كان ينام على ظلال جهله، ويستيقظ فجأة على ضوءٍ لا يُحتمل.

في شقة صغيرة في برلين، جلست الصحفية **إيفا بيل** أمام شاشة حاسوبها، تقرأ مرة تلو أخرى الملفّ الذي وصلها مجهولًا : **مشروع كاين و زملائه كاملاً**. كل شيء تسرّب من بين شفتي أندريه في لحظة من لحظات سكره المعتاد إلى إحدى صديقاته الصحفيات في ليلة تحول فيها الحب إلى إفصاح بما لا يجب أن يُعرف أو يقال .

كانت إيفا تعرف، وهي تضع يدها على قلبها، أن ما بين يديها ليس مجرد سبقٍ صحفي، بل قنبلة ستُغيّر التاريخ.

الساعة كانت تشير إلى الخامسة فجرًا حين ضغطت على زر "النشر".

في لحظةٍ واحدة، انسكب السرّ إلى العالم كما ينسكب الضوء من جرحٍ مفتوح.

خبر صغير في بدايته، لكنه انفجر على الشاشات كوميض برقٍ لا ينطفئ :

(علماء في أمريكا نجحوا في تحويل شفرة DNA إلى كتاب يروي قصة حياة الإنسان من المهد إلى اللحد)

في الساعات التالية، كانت الكرة الأرضية كلها تدور حول الخبر.

القنوات تنقل التفاصيل، المنتديات تغلي، المنصات تضجّ، والناس بين من يهلّل ومن يرتجف.

عناوين الصحف تتناوب بين الحلم والرعب :

(القدر في يد العلم)

(نهاية الغيب وبداية الشفافية المطلقة)

(هل أصبحنا آلهة أم مجرد ضحايا للمعلومة ؟)

في مقهى صغير في لندن، جلس فيلسوف مسنّ أمام شاشة التلفاز، رفع فنجان القهوة وقال مبتسمًا :

= ها قد سقط آخر جدار بين الإنسان والسماء كجدار برلين يا حفيدي. لم نعد نحتاج إلى الكهنة أو الأنبياء ليخبرونا بالغد. لقد صنعنا معبدنا الرقمي بأنفسنا.

فأجابه شابّ يجلس إلى جواره، ملامحه حادة كمن يؤمن بالمعنى أكثر من العالم نفسه :

= بل رفعنا الستار عن الوهم ! إن المعرفة حين تكشف الغيب، تقتل جوهر الإيمان ذاته. لقد حوّلتم الله إلى معادلة، والقدر إلى برنامج.

ضحك العجوز وقال :

= ألم يكن الإنسان يبحث منذ البدء عن هذه اللحظة ؟ لحظة أن يعرف، أن يفهم، أن يرى نفسه كما تراه السماء ؟

= نعم، لكنه نسي أن المعرفة بلا حكمة تلد الكارثة. إنك حين ترى النهاية، تفقد الرغبة في السير نحوها.

في المقابل، ثارت حمية رجال الدين حتى الذروة ، و هم يرون في مشروع كاين قمة التجديف .. فالعالم كله يشعر، لأول مرة، أن الغيب الذي طالما احتمى به يتلاشى من بين أصابعه.

صرخ أحد رجال الدين في بثٍّ مباشر:

= لقد مدّ الإنسان يده إلى الكتاب المحرّم ! لم يكتفِ بتفسير الخلق، بل أراد أن يقرأ الغد. إنهم يقتلون سرّ الله فينا !

ردّ عليه عالم ياباني من جامعة طوكيو قائلاً بهدوءٍ علمي مدهش :

= نحن لا نقتل السرّ يا سيدي، بل نقرأه. والقراءة ليست جريمة إلا حين تخاف الكلمة من الحقيقة.

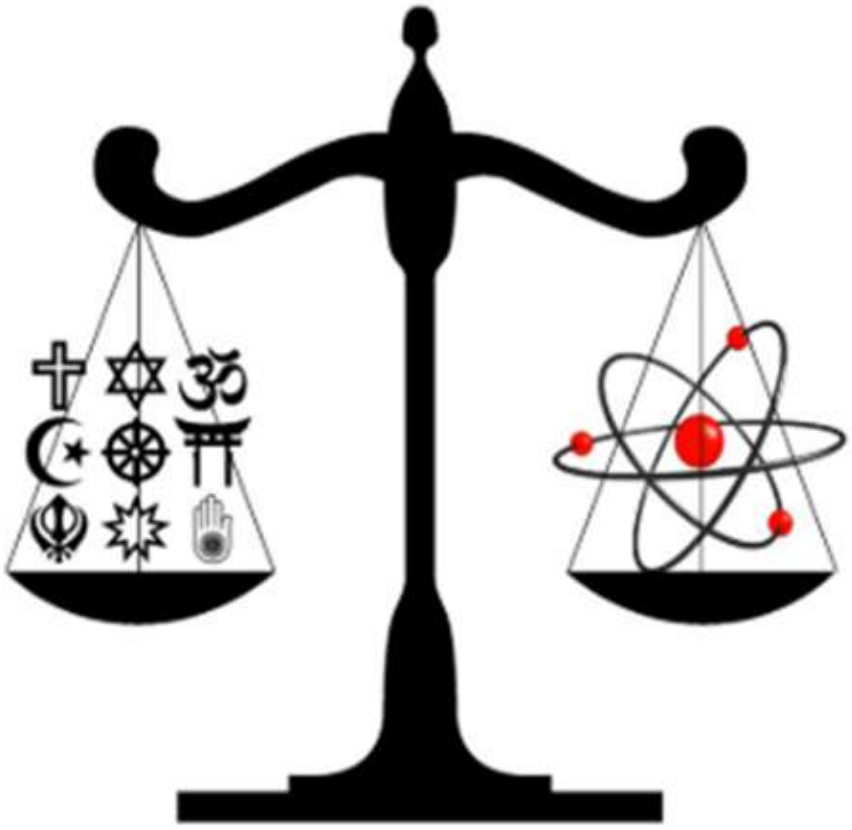

أما إيفا بيل، صاحبة التسريب، فجلست في زاوية مظلمة من مكتبها، تحدّق في ضوء الشاشة الذي يعكس وجهها.

لم تكن تبتسم كما يفعل الصحفيون حين يحققون سبقا، بل ترتجف كما يرتجف من أيقظ الوحش من نومه.

قالت لنفسها بصوتٍ مبحوح :

= كنت أظن أني أفضح مشروعًا علميًا ... لم أعلم أني سأفتح أبواب القيامة الفكرية.

دخل زميلها **أوليفر** وقال بانفعال :

= إيفا، لقد صار اسمك في كل نشرات العالم ! إنك بطلة، الناس يقولون إنك منحتِ البشر حقّهم في المعرفة ، و منشورك أصبح ترند التاريخ برمته !!

نظرت إليه بعينين شفافتين كالزجاج وقالت:

= وهل المعرفة دائمًا خلاص ؟ ربما أطلقتُ رصاصة على المعنى دون أن أدري.

= أنتِ تكشفين الحقيقة، وهذا عمل الصحافة منذ الأزل يا صديقتي !!

= لكن أي حقيقة ؟ تلك التي تحرّر أم تلك التي تُربك الوجود ؟ ماذا لو كان الجهل ضرورة للحياة ؟ ماذا لو كان الغيب هو رحم الأمل ؟

في المقابل، كانت قنوات الأخبار تستضيف العلماء والفلاسفة والمفكرين في مناظراتٍ حامية.

قال أحدهم :

= نحن الآن أمام أخطر لحظة في التاريخ، لأننا نملك القدرة على قراءة مصيرنا، وربما تغييره.

فردّ عليه آخر بنبرة ساخرة :

= تغييره ؟ وهل يستطيع النصّ أن يُعدّل نفسه بعد أن يُكتب ؟ إننا لا نملك إلا الوهم بالتحكم.

= لكن العلم يا سيدي، هو التمرد الأعظم على الوهم !

= بل هو أداة جديدة للقدر كي يختبرنا. ربما يريدنا الله أن نرى أنفسنا ونحن نرتجف أمام مرآة الغد.

في الشوارع، ظهرت بعد أيام حركات جديدة، جماعات تؤمن بأن قراءة الجينوم هي طريق الخلاص، وأخرى ترى فيها بوابة الجحيم.

في المدن الكبرى، وقف المتظاهرون يحملون لافتات متناقضة :

(أعيدوا لنا الغيب، خذوا عنّا المعرفة.)

(لا خلاص إلا بالعلم، لا إيمان إلا بالشفرة.)

وفي تلك الفوضى، صار البشر يقيسون حياتهم كما تُقاس المعادلات : من سيعيش ؟ من سيموت ؟ من سيُحب ؟ من سيخون ؟

انقلبت القيم. صارت الشفافية المطلقة مرضًا جديدًا، وبدأ الناس يخافون من أنفسهم أكثر مما يخافون من الآخرين.

أحد المذيعين سأل ضيفه الفيلسوف الشهير **ألكسندر ريختر** :

= هل انتهى الغيب ؟

فأجاب بابتسامة شاردة :

= الغيب لا ينتهي، لكنه يبدّل شكله. اليوم صار اسمه العلم.

أما هناك في أمريكا فجلس كاين نفسه في مختبره المنزلي، يراقب الشاشات، يرى العالم يشتعل بنيران الحقيقة التي لم يكن يريد نشرها.

قال لأندريه وهو يضرب بيده على الطاولة :

= لقد حوّلتْ إيفا بحثًا عن الحقيقة إلى عاصفة ضدها !، من سرّب مشروعنا بالأساس .. أنت ميران .. من ؟!

ردّ أندريه بهدوءٍ حزين يقنّع شعوره بالذنب لخيانة أسرار صديقه :

= لا أعلم .. ربما ماركوس شتاين .. على كل حال ألم يكن هذا حتميًا ؟ كل سرٍّ يُكتشف يُولد معه جنونه الخاص.

= لم أكن أريد الشهرة، أردت فقط أن أفهم، أن أنقذ ابنتي !

= السماء لا تهتم بالنوايا يا كاين، بل بالنتائج. لقد خرج العلم من يدك، وصار في يد العالم ..

= لكنّ العالم طفلٌ لا يعرف خطورة اللعب بالنار.

ميران كانت صامتة، تحدق في الضوء الأزرق المنبعث من الحاسوب، ثم قالت بصوتٍ يشبه الحلم :

= ربما ما فعلته إيفا كان ضروريًا. لكي يعرف الإنسان أن الجهل أحيانًا هو أعظم نعمة. لقد صار أمامنا الآن امتحان الوعي : هل سنحتمل أن نرى كل شيء بوضوح ؟

التفت إليها كاين بشك :

= أفهم من كلامك أنك أنت من أخبرها يا ميران ؟!

= على الإطلاق .. و لا أعرفها بالأساس ..

في المساء، خرجت إيفا بيل إلى شوارع المدينة. كانت الأصوات تعلو في كل مكان، مظاهرات، شعارات، هتافات، خوف، ودهشة.

وقفت على جسرٍ فوق النهر، تحدق في الماء الذي يعكس أضواء العالم الغاضب، وقالت لنفسها :

= لقد غيّرتُ التاريخ ... لكن هل سيغفر لي التاريخ ؟

سمعت صوت امرأة خلفها تقول :

= أتعلمين، كنتُ واحدة من اللواتي فقدن إيمانهنّ اليوم بسببك.

التفتت إيفا، فرأت سيدة أربعينية تحمل بيدها كتابًا مقدسًا صغيرًا.

ردّت عليها بهدوء :

= لم أقصد أن أُطفئ الإيمان .. الإيمان لا ينطفئ بالعلم، بل يُختبر به.

في تلك الليلة، كتب أحد المفكرين على صفحته الإلكترونية جملة انتشرت كالنار في الهشيم :

(منذ أن قرأنا الجينوم، لم نعد نخاف الموت، بل نخاف المعرفة.)

تلك كانت بداية الفوضى الجميلة، الفوضى التي أيقظت الإنسان من سباته الطويل، وجعلته يطرح على نفسه أسئلة لم يجرؤ من قبل على النطق بها :

- هل أريد أن أعرف متى أموت ؟
- هل أحتمل أن أعرف من سأحب ومن سيخونني ؟
- هل سأظلّ إنسانًا إذا فقدتُ الغموض الذي يجعلني أبحث ؟

لقد صار العالم يقف على عتبةٍ جديدة :

(بين من يرى في الجينوم كتاب الخلاص، ومن يراه سفر اللعنة.)

بين من يؤمن أن العلم هو الوحي الجديد، ومن يرى أنه صدى قديم لغرور الإنسان الأول حين أراد أن يأكل من شجرة المعرفة.

أما كاين، فقد جلس تلك الليلة في ظلام مكتبه، شاشته مطفأة، وصدى الأخبار يملأ الفراغ من حوله ، في حين عقله و قلبه في عالم آخر .. عالم يحاول فيه أن يحيك طوق نجاة لابنته آفا من مصيرها المحتوم بجيناتها.

قال لنفسه :

= ربما أخطأت بمشروعي .. كنا نظن أننا نُفسر الحياة، فإذا بنا نكسر توازنها. أردنا أن نقرأ الغد، فحرّفنا معنى اليوم. أردنا إنقاذ الإنسان، فعرّيناه من وهمه الجميل.

رفع رأسه نحو النافذة، حيث كانت المدينة تضيء وتغرق في ذات الوقت، وقال بصوتٍ كأنه صلاة :

= يا الله ... ماذا لو كان الغيب هو رحم الرحمة ؟ ماذا لو كانت قدرتك في أننا لا نعرف ؟

وفي آخر الليل، بينما كانت الصحف تطبع نسخها الجديدة، والعناوين الحمراء تتوهج كجروح نازفة ،

كتبت إيفا بيل في مذكرتها جملة واحدة فقط :

(حين تنكشف الأسرار، يبدأ العالم في البحث عن ظلٍّ يختبئ فيه.)

الفصل التاسع

لا حذر من قدر

منذ تلك الليلة، لم يعرف كاين للنوم طعمًا. كلما أغمض عينيه، كانت الشيفرة الجينية لابنته تُطلّ عليه من عتمة الحلم، كأنها وجه القدر وقد اتخذ شكل الأحماض النووية. يرى الأحرف الأربعة - **A**، **T**، **G**، **C** - تتوالى كنبضات قلبٍ خفية، تصوغ لحظة النهاية ببرودٍ رياضي لا يرحم. ثلاثون يومًا فقط. لا أكثر. كأن الكون كتب هذا الموعد بخطٍّ لا يُمحى، واكتفى بالمراقبة .. العالم في الخارج يضجّ بأخبار مشروعه و قلبه يضجّ بمصير ابنته ..

كان يجلس في مكتبه، والليل ينسدل على نوافذ المختبر مثل ستارٍ من زجاجٍ أسود. أمامه صورة لآفا وهي تضحك في عيد ميلادها الأخير. شعرها الخرنوبيّ يتطاير، وشموع الكعكة تتراقص على وجهها مثل نجومٍ صغيرة تخاف أن تنطفئ.

همس لنفسه، بصوتٍ لا يسمعه أحد :

= ثلاثون يومًا فقط لتغيب هذه الشموع إلى الأبد ؟ لا، ليس بعد. إن كان القدر حتمياً، فربما يمكنني أن أُربكه، ولو بخطأٍ بسيط في معادلة الحياة.

في تلك اللحظة، شعر أن العلم - الذي كرّس له عمره - ليس سوى محاولة مستمرة لإقناع الله بتغيير رأيه. لكن كيف يمكن لعقلٍ بشري أن يعيد كتابة نصٍّ كُتب قبل ولادة النجوم ؟

بدأت الأفكار تتسلل إلى ذهنه كوميضٍ خافت، ثم تتجذر ببطءٍ حتى تخمّرت يقينًا :

إن كانت الحادثة هي ما سيقتلها، فعليه أن يُبعدها عن طرق السيارات.

أن يأخذها إلى مكانٍ لا طرق فيه، لا ضجيج، لا مصادفات ميكانيكية تترصد اللحظة المناسبة لتؤكد نبوءة الشيفرة.

كان منزله الريفي في الجبال أول ما خطر له. هناك، الطرق ضيقة، لكنها شبه مهجورة. الطبيعة تبتلع الأصوات، والوقت يسير ببطءٍ كأنه ينتظر شيئًا ، و في محيط منزله لا وجود لطرق أو سيارات ..

قال في نفسه :

= سأصعد بها إلى هناك قبل الموعد بأيام و بالتالي لن تموت بحادث سير قبل وقتها. و في المنزل لا يمكن لمركبة أن تعترض طريقها .. و بالتالي سأغلق عليها أبواب القدر من كل الجهات ..

في الصباح، وقف أمام نافذة غرفتها. كانت آفا نائمة، وجهها الصغير غارق في ضوءٍ رمادي يمر من الستائر كأنه ضوء ما قبل الفجر في آخر العالم.

اقترب منها، ولمس جبينها. تذكّر كيف كان يشرح لها وهي طفلة أن الجينات تشبه القصص، وأن كل خلية في

جسدها تحفظ فصلاً من روايتها الخاصة.

قال بصوتٍ خافت :

= لو كنتِ تعرفين، يا صغيرتي، كم حاولتُ أن أغير سطور قصتك.

فتح النافذة، فهب نسيم بارد. نظر إلى السماء. كانت الغيوم تتكوّر ببطء فوق الأفق، كأنها تخفي شيئًا لا يريد أن يُقال.

هناك، في ذلك الصمت، شعر أن الكون كله يراقبه. أن الطبيعة تعرف ما ينوي فعله، وتنتظر لترى إن كان الإنسان يستطيع أن يتحدى مصيره .. ما يزال أمامه أسبوع قبل الموعد المحدد بمطرقة الجينوم .

قبل الرحيل بساعات، بدأ كاين يحضّر كل شيء: أدوات طبية، عينات، حاسوبه المحمول، وحتى المجهر الرقمي. لم يكن يستطيع ترك مشروعه خلفه. العلم بالنسبة إليه كان امتدادًا من الأبوة، سعيًا آخر لحماية الحياة، بطريقةٍ غير عادية.

أما أندريه وميران، فكانا يراقبانه بصمتٍ متردد.

قال أندريه :

= أوريل، أنت تعلم أن ما تفعله ليس منطقيًا. إن كانت النبوءة صحيحة، فلن يمنعها الجبل ولا البحر.

فأجابه كاين، بعينين حمراوين من السهر:

= المنطق هو ما يصنع الجدار بيننا وبين المعجزة. أحيانًا، لا بد أن نؤمن بما لا يُقاس.

قالت ميران، بصوتٍ خافت كهمس الغبار:

= أنت تحاول أن تخلق قدرًا جديدًا من رماد القديم. لكن الرماد لا يُنبت إلا الوهم.

ابتسم، وترك كلماتها تتساقط كرمادٍ فعلاً. ثم همس :

= ربما يكفي أن أمنحها وقتًا أطول لتضحك. هذا وحده معجزة كافية.

في اليوم التالي، كان الطريق إلى الجبال مبللًا بالمطر.

السيارة الرمادية تشقّ الضباب، كأنها تسير داخل حلمٍ بارد لا يعرف البداية من النهاية. آفا تجلس في المقعد الخلفي، تحت غطاءٍ صوفيّ، تنظر إلى الغابات المبللة بالخضرة وتقول بصوتٍ ناعم :

= أبي، لماذا كل هذا البُعد ؟ هل نذهب في عطلة ؟

ابتسم، لكنه لم يجرؤ على النظر في عينيها.

= نعم يا حبيبتي، عطلة صغيرة ... قبل أن يأتي الربيع.

أجابت وهي تضع رأسها على النافذة :

= أحب الجبال. تبدو وكأنها تحرس السماء.

شعر كاين أن قلبه يتشقق كجبلٍ من جليد. تلك الكلمات ، كانت أبسط من أن تكون نبوءة، لكنها كانت نبوءة بالفعل.

في الوقت ذاته، على بعد أميالٍ من هناك، كانت زويا تسير بسيارتها الصغيرة باتجاه الجبال نفسها لكن لغاية مختلفة جذرياً ، **فبينما كان كاين يهرب إلى الجبل تجنباً للموت ، كانت زويا تتجه إليه قاصدةً الموت بذاته.**

السماء رمادية كالمعدن، والريح تعصف على زجاج السيارة كما لو كانت تحاول ثني قرارها.

لم تكن تعرف لماذا اختارت هذا اليوم تحديدًا، ولا لماذا قادتها الطريق إلى ذلك الجبل الذي تعرضت فيه للاعتداء بالذات .. كل ما كانت تعرفه أن حياتها لم تعد تحتمل المزيد من الخسارات، وأنها - بعد كل شيء - لم تعد تؤمن أن للأمل مكانًا في هذا العالم.

كانت تفكر:

= ربما الموت ليس فناءً ، بل تحرر من الوعي الثقيل.

تذكرت لحظات الاعتداء، كيف فقدت السيطرة على جسدها لأول مرة، وكيف شعرت بعدها أن روحها صارت مكسورة إلى الأبد.

قالت لنفسها :

= سأنهي هذا الآن. لا مزيد من الألم، لا مزيد من المحاولات.

وفي مكانٍ ما بينهما، كانت الرياح تتقاطع كأنها ترسم خطوط مصيرٍ غير مرئي، يُقرب بين طريقين لا يعرفان بعضهما.

كاين يقود بصمت، والضباب يزداد كثافة.

وزويا تصعد بتهور يعكس رغبتها في التحرر من آلامها ، لا ترى إلا الظلال المتحركة للأشجار، تشبه

أشباحًا تلوّح لها وداعًا.

الوقت نفسه صار هشًا، كأنه ينتظر اللحظة التي يتشابك فيها كل شيء.

ثم، فجأة، ضوءان يقتربان من اتجاهين متعاكسين، على طريقٍ جبلي ضيق، تلتف حوله الرياح مثل أفعى من بخار.

صرخة مكبوتة في حلق كاين، وصدى آخر في صدر زويا.

اللحظة التي كتبها الجينوم جاءت قبل موعدها.

الحديد يصطدم بالحديد. الزجاج يتناثر كأحلامٍ تحطمت دفعةً واحدة.

الصمت بعدها كثيف، كأنه صدر الكون يلهث.

حين أفاق كاين، كان كل شيء حوله يسبح في ضوءٍ أبيض مشوّش. شعر بألمٍ حاد في ذراعه وضلوعه.

أول ما رآه كان الدم، ثم جسد آفا الصغير ممددًا بجانبه، مغطى بالزجاج والثلج.

صرخ، صوتٌ يخرج من أعماق لا اسم لها.

= آفا ! آفا !

حاول الزحف نحوها، لكن جسده خانَه.

كانت عيناه تبحثان عنها كما لو أنه يبحث عن فجر في آخر أنفاس الليل ..

زويا، من الجهة الأخرى، كانت ملقاة على الأرض، وجهها نصف مغطى بالتراب والثلج. شعرت أن العالم يدور حولها ببطءٍ قاتل. سمعت صوت طفلة تبكي، فحاولت النهوض، لكن الألم شدها إلى الأرض.

في تلك اللحظة، لم تفكر بأنها أرادت الموت، بل بأنها لا تريد أن يموت أحد بسببها.

بعد ساعات، كانت سيارات الإسعاف تملأ المكان باتصال نجدة من كاين. أضواؤها الحمراء تمزّق الضباب مثل قلوبٍ مشتعلة.

كاين محمول على نقالة، ويده لا تزال ممدودة نحو الجهة التي اختفَت فيها ابنته التي حملت على نقالة أخرى ..

زويا نقلت إلى سيارة أخرى، تهمس بالدموع وهي تغيب في وعيها :

= لم أكن أريد هذا ... لم أكن أريد الموت على حساب أرواح الآخرين .

في المستشفى، اجتمع الصمت مع أجهزة التنفس الاصطناعي في جوقةٍ باردة.

آفا في العناية المشددة، جسدها الصغير محاط بأنابيب وأسلاكٍ كأنها جذور آلةٍ تبحث عن حياة.

كاين يراقبها من خلف الزجاج، ملامحه مزيج من الهلع والدهشة والاستسلام.

قال الطبيب بصوتٍ خافت :

= لقد فعلنا كل ما بوسعنا ... الموضوع الآن بين يدي السماء ..

أدار كاين وجهه نحو النافذة. كان الغروب يرسم السماء بألوانٍ تشبه نزيفًا جميلاً.

قال لنفسه، وهو يبتسم بمرارة تدرك المصير القادم :

= لقد أخبرتنا الشيفرة بكل شيء ... حتى موعد انكسار القلب.

تلك الليلة، جلس أوريل على مقعدٍ خشبي خارج المستشفى بذراع مجبرة و قطب جراحية ترسم خريطة للألم هنا و هناك على جسده. الجبال من بعيد تلوح كالظلال.

أغمض عينيه، وتخيل وجه ابنته وهي تضحك، كأنها تجلس إلى جواره لا بين أسرّة العناية المشددة خلفه ، ترقص بين الهواء والضوء والذاكرة.

تساءل في نفسه :

(هل كنا نحاول أن نهرب من القدر، أم أننا كنا نسير نحوه من البداية ؟)

لم يجد جوابًا، لكنه شعر أن شيئًا تغير داخله. أن العلم، رغم جبروته، عاجز عن تغيير أبسط معادلة في علم الوجود : (**لا حذر من قدر .. و لا هرب مما كتب**)

وفي السرير المجاور لآفا ، كانت زويا تستيقظ ببطء. ساقها في الجبس، رأسها يلفه ضماد.

تذكرت الصدمة، تذكرت بكاء الطفلة ، وتذكرت الضوء الذي اجتاحها قبل أن يغيب كل شيء.

أحست أن القدر سحبها من على حافة الموت ليضعها في مواجهةٍ مع معنى جديد للحياة.

همست لنفسها :

= ربما لم يكن الموت ينتظرني ... ربما كنت أنا التي تنتظر الحياة.

بعد أربعة أيام من الحادث ، و في الموعد الذي حدده جينوم آفا بالضبط ، توقف قلبها عن النبض فارتجّ المكان بأصوات الأجهزة الطبية التحذيرية .. صعدت روحها إلى السماء كنجم صارع المرض لخمس سنوات ثم أتم رسالته و انطفأ ، لا كما أراد كاين الذي نجا ، ولا كما تمنّت زويا التي نجت بدورها ، بل كما أراد الكون أن يحدث ، بحروفٍ صامتة لا تُقرأ إلا بالقلب.

وفي مكانٍ ما، بعيدًا عن المختبرات والمعادلات، ظلّ القدر يبتسم ابتسامة غامضة، كأنه يقول :

(حتى حين تعرف النهاية، ستظل تمشي نحوها بخطى الحب ذاته .. كفراشة تنجذب إلى النار لتحترق بها)

الفصل العاشر

فسحة أمل

لم تزل المدينة تلبس ثوب الحداد حين خرجت زويا من شقتها الصامتة، حاملةً على كتفها معطفًا رماديًّا أثقل من جسدها، وكأنها تحمل معه ذكرى لم تُدفن بعد و عكازها معها.

كانت شوارع المدينة مبلّلة، والثلج الذائب على الحواف يلمع مثل بقايا حلمٍ لم يصمد أمام النهار. في كل زاويةٍ تمرّ بها، في كل بركة ماء تنظر إليها ، رأت انعكاس وجهٍ لم تعد تعرفه.

كان صباح جنازة آفا ، الطفلة التي ماتت في الحادث المأساوي قبل أسبوع بتهور من زويا نفسها.

لم تكن زويا تعرفها، لكن ثمة خيط غير مرئي كان يشدّها إلى تلك الجنازة كما لو أن قلبها يعرف شيئًا لا تعرفه هي بعد ، أو ربما عقدة الذنب تجذبها إليها.

هناك، عند البوابة الحديدية للكنيسة، وقفت وسط الحشود. المآذن والصلبان صامتة، والسماء رمادية كجرحٍ لم يلتئم بعد.

الناس يتحدثون بصوتٍ خافتٍ عن أوريل كاين، العالم الذي تحدّى القدر، ثم خسره في لحظة.

في المقاعد الأمامية جلس كاين، ووجهه لا يحمل سوى بياضٍ ذابل، كأنه جزء من الثلج.

تذكّرته فورًا؛ رأت ملامحه يوم الحادث على نقالته، اليوم الذي أوشكت أن تقفز فيه من الجرف قبل أن يحبط الحادث نيتها .. ذاك الرجل الذي صرخ باسم آفا ! قبل أن ينهار كل شيء.

دموع الحضور لم تكن تنهمر من العيون، بل كانت تصدر من الداخل كصوتٍ معدنيٍ صامت، يسقط في جوفٍ بعيد.

لم تفهم زويا سبب وجودها هناك، سوى أن شيئًا فيها يريد أن يودّع العالم من خلال عيني هذا الرجل الذي يعرف معنى الفقد مثلها.

بعد المراسم، حين تفرّق الناس تحت المطر الخفيف، وجدت زويا نفسها تمشي خلف كاين حتى باب الكنيسة القديم، كأنها تتبع ظله لا خطاه.

لم تنتظر دعوةً للدخول، ولم يسألها من هي. جلسا فقط بصمتٍ في غرفةٍ مضاءةٍ بنورٍ باهت.

قالت أخيرًا:

= أنا زويا .. كنتُ هناك، في الجبل يوم الحادث. كنت أستقل السيارة الأخرى .. تعازيّ الحرة بفقدك .. لا كلمات تخفف وطأة الحزن ، أعلم .. لكن عواطفي كلها تقف إلى جوارك ، فأنا أفهم تماماً معنى الفقد .. لقد خسرت نفسي منذ أسابيع و لذلك بالضبط كنت هناك يوم الحادثة ..

رفع رأسه ببطء، نظر إليها نظرة الإنسان الذي صار لا يثق بالسماء ولا بالعلم، ثم أجاب بصوتٍ منخفض :

= أهلاً آنسة زويا .. شكراً لمواساتك .. أما أنا فكنت هناك لأنني كنت أحاول أن أنقذ ابنتي من قدرٍ كتبته بيدي.

زويا لم تفهم ..

= قدرٌ كتبته ؟

ابتسم كاين بمرارةٍ تشبه اعترافًا :

= كنت أعمل على مشروعٍ لترجمة الجينوم الإنساني إلى لغة واضحة تشرح قصة حياة الإنسان في محاولة لإنقاذ ابنتي آفا من مرضها الخلقي أو على الأقل معرفة

كم تبقى أمامها لتعيشه. كنا نظن أننا نرسم المستقبل، لكن تبين أننا كنا نستدعيه.

حين حللتُ شفرة ابنتي آفا، وجدت فيها تنبوءاً لا علاقة له بمرضها اللعين ، بل بحادث سيرٍ سيقتلها بعد ثلاثين يومًا .. ظننتُ أنني أستطيع تغيير المصير إن أبعدتها عن صخب المدينة و طرقها و حوادثها ، فأخذتها إلى الجبل .. لكن الطريق الذي هربنا عبره، كان هو ذاته الطريق الذي قادنا إلى النهاية.

صمت لحظة، ثم أضاف :

= وكأن الشيفرة كانت تعرف أننا سنهرب، فاختارت لنا طريق الهروب ليكون طريق الموت.

نظرت إليه زويا نظرة من رأى في الآخر مرآةً لنفسه :

= غريب للغاية !! ، كنتَ هناك تحاول إنقاذ ابنتك من

الموت، وكنتُ أنا أحاول إنقاذ نفسي منه بأن أذهب إليه بنفسي و أنهي معاناتي .

رفع حاجبيه بتعجبٍ حذر:

= أردتِ الانتحار !! ... لماذا ؟

أخفضت رأسها، أصابعها ترتجف على طرف العكاز:

= لأن ذاك الجبل هو المكان الذي بدأ فيه كل شيء. فقبل أسابيع من الحادث، تعرضتُ هناك لاعتداءٍ من قبل رجل متوحش ، لا أريد أن أصفه .. عدتُ من الجبل فتاةً أخرى خسرت جسدها و روحها و أظلمت الدنيا في عينيها .. و بعد أسابيع من الألم النفسي المنهك بلا أمل ، قررت أن أعود للمكان ذاته، لا لاستعادة العدالة، بل لإنهاء الحكاية .. كنتُ أنوي القفز من الجرف إلى الوادي ، لكنك ظهرتَ قبل أن أفعل و كان الحادث الذي قتل ابنتك و أنقذني في مفارقة لا أفهمها !

أوريل ظلّ صامتًا، ثم قال ببطءٍ كأنه يخاطب نفسه :

= غريب. كنت أهرب من موتٍ متنبأٍ به، وأنتِ كنتِ تبحثين عن موتٍ تختارينه.. كأن الجبل كان مصهرًا واحدًا لأقدارٍ تبحث عن معنى النجاة بطرق متناقضة.

ابتسمت زويا بحزن ..

= أحيانًا لا يريد الإنسان النجاة، بل يريد فقط أن يتوقف الألم.

= أو ربما يريد أن يفهمه ..

= ربما .. لكني لم أعد أثق بالفهم. كنتُ ضحية تبحث عن الحقيقة، ثم اكتشفتُ أنها أقسى من الكذب أحيانًا.

أومأ برأسه، ثم قال :

= تعرفين، حين بدأتُ مشروع الجينوم، كنت أؤمن أن الحقيقة خلاص .. لكن حين قرأت في شفرة ابنتي موعد موتها، تمنّيتُ لو بقيت طوال عمري جاهلًا.

حلّ الصمت بينهما بعد كلماته الأخيرة كريحٍ تمرّ في ممرّ ضيق.

على الطاولة بينهما، وُضعت صورة لآفا، تبتسم فيها وهي تحمل مجسمًا صغيرًا لكوكبٍ زجاجي.

زويا قالت :

= هل كنتَ تحبها إلى هذا الدرجة كي تسخّر حياتك لإنقاذها !؟

ضحك كاين بخفوتٍ حزين :

= الحب كلمة صغيرة، يا زويا. آفا كانت كلّ حياتي.

حين ماتت، شعرتُ أني خنتها مرتين : مرة لأنني عرفت موعد موتها ولم أقدر أن أغيره، ومرة لأنني صدقتُ أن العلم أرحم من القدر.

ساد صمت طويل مجدداً بينما السماء تثلج بقوة في الخارج ، ثم ذوبته زويا بصوت دافئ :

= و هل يمكن أن أرى مصيري من خلال جينومي بدوري ؟

= مصيرك ؟!

= نعم. لا أريد أن أعيش مجددًا في الظلام. أريد أن أعرف إن كنتُ سأتعافى، أم أنني مصممة على الانهيار. إن كان فيّ ما يستحق أن يُنقَذ ، أم أن عليّ إنهاء مأساتي من جديد ؟!.

كاين ظلّ يحدّق فيها للحظات ، ثم قال بصوت غامض:

= ترجمة الجينوم ليست نجاةً يا زويا بل ربما موت بطيء كل يوم قبل الموت الأخير .. ربما كان من الأفضل لك أن تجهلي مستقبلك ..

= بل أريد أن أعرفه .. أنا الغريق سيد كاين ، فما خوفي من البلل ؟!

نظر إليها بدهشة .. أطرق رأسه و هو يفكر برويّة ، ثم قال :

= إن كان هذا قرارك الأخير ، سنجرّب.

تفرقت شفتاها عن ابتسامة تصارع حزنها العميق لتنتصر عليه في جولة :

= أشكرك .. هذا أملي الأخير و لا أريد أن أفوّته ..

****

بعدها بأيام ...

في المختبر، تحت الضوء البارد، جلست زويا صامتة.

الإبر الصغيرة، الأجهزة، أنابيب التحليل ، كلها بدت كأنها كهنة معبدٍ حديثٍ يتهيؤون لطقسٍ غامض.

حين أخذ كاين العينة، سألها :

= هل تخافين مما قد تعرفينه ؟

قالت بابتسامةٍ مرتجفة :

= لا أكثر مما أخاف مما أجهله.

بدأت الشاشات تومض ببطء، كأنها تتنفس.

في عينيها مزيجٌ من الفضول والرعب.

مرّت الساعات ببطءٍ ثقيل .. و مع حلول ذاك المساءٍ الشتوي ، عاد كاين من غرفة جانبية يحمل ملفًّا صغيرًا، وجهه متعب لكنه يحمل في عينيه لمعةً غير مألوفة.

قال لها وهو يضع الورق أمامها :

= كتاب حياتك بين يدي .. لقد قرأتُ شفرتك.

ترددت أن تمد يدها.

= وماذا وجدت ؟

جلس أمامها، صوته هادئ كطبيبٍ في مواجهة معجزة:

= جينومك يقول إنكِ مصممة على النجاة. هناك مؤشرات قوية على قابلية الاستقرار النفسي، لكن الأهم من ذلك كله ....

توقف لحظة، كأنه يختار كلماته بعنايةٍ حكيم :

= بعد عامٍ بالضبط، ستلتقين برجلٍ تتوافق جيناته العاطفية معك بدرجةٍ نادرة. العلاقة التي ستنشأ بينكما ستغير خريطة دماغك الانفعالية كليًا، و ستعيد التوازن الكيميائي الذي اختل بعد الصدمة .. إنها ليست نبوءة بالحب فحسب، بل بوعدٍ بالتماسك و بالانتماء.

زويا صمتت.

كانت تنظر إلى الأرقام وكأنها طلاسم.

ثم سألت، بصوتٍ مرتجف :

= و هل ... و هل يمكن أن يكون ذلك حقيقيًا ؟

قال كاين :

= الجينوم لا يكذب آنسة زويا .. إنه قدر السماء الذي لا يختلّ أو يتغير ، و حادثة ابنتي آفا خير دليل على ذلك .. ستعيشين آنسة زويا .. بل أكثر من ذلك ، ستُحبين الحياة.

في تلك اللحظة، شعرت زويا أن صخرة كانت تجثم على قلبها و هوت بعيداً .. تنفست بعمق لأول مرة منذ حادثة الاعتداء و كأنّ شيئًا دافئًا بدأ يتسلل إلى صدرها، شيئًا يشبه الضوء بعد ظلامٍ طويل.

قالت بصوتٍ منخفضٍ يشبه الصلاة :

= ربما ... كان الضوء الذي دخل غرفتي قبل الحادث ليس صدفة. كأن السماء تذكّرني بأن ثمة حياةً تنتظرني ... ربما كان هو ... ذاك الشاب الذي لم أره بعد.

ابتسم كاين :

= و ربما لم يكن الضوء شخصًا، بل وعدًا.. الوعد هو ما يجعلنا نحيا رغم المعرفة، لا بسببها.

خرجت زويا من المختبر وهي تشعر كأنها تمشي على هواءٍ خفيف.

المدينة ما زالت رمادية، لكن الرماد صار أقل وطأة.

في صدرها الآن شيءٌ صغير يشبه النبض الأول لطفلٍ لم يولد بعد.

لم تعد تفكر في الجبل، ولا في الاعتداء، ولا في الموت، بل في العام القادم، في اللقاء الموعود، في الاحتمال

الذي قد يصير حياة.

أحست أن السماء لم تكن تتعدى على الغيب، بل تمنح الإنسان طريقًا نحو الأمل، بشرط أن يمتلك الشجاعة لقراءته.

وعندما عادت إلى غرفتها تلك الليلة، رأت الشعاع ذاته يتسلل من النافذة.

لكنها لم تغلق الستارة كما اعتادت، بل جلست أمامه طويلاً، تبتسم، كأنها أخيرًا فهمت أن النور لا يُكشَف لمن ينتظره، بل لمن يختار أن يبقى حيًا حتى يراه.

الفصل الحادي عشر

لن تفهم نفسك إلا بعد أن تفقد كل شيء

منذ رحيل آفا ، كان الزمن يمشي في مختبر كاين كأنّه يمشي في متحفٍ للصمت. الأجهزة نفسها، الأضواء نفسها، الأوراق المبعثرة نفسها... لكن كلّ شيء فقد قلبه النابض ، فالشخص الذي تم تأسيس المختبر من أجله رحل و أخذ الغاية و المعنى معه .

أما زويا فقد أصبحت نجمًا قريبًا من مدار كاين، تدور حوله بهدوءٍ لا يخلّ بالسماء، بل يرمم صدعها الخفي. فهي آخر وجهٍ رأته ابنته آفا قبل أن تنطفئ، آخر نفسٍ تشاركتاه معاً في وحدة العناية المشددة ، وآخر صمتٍ فاصل بين الحياة والموت. ومع ذلك، لم ينبض قلب كاين بالحقد تجاهها ، كونها المتسببة بالحادث ، كما تقتضي طبائع البشر حين يفتشون عن مذنبٍ يُسكِتون به وجعهم، بل شعر بشيءٍ آخر لا اسم له إلا الامتنان. كان يرى فيها امتدادًا لصوت ابنته الأخير، الشاهد الصامت الذي أتمّ حكايتها وترك له أثرًا إنسانيًا يتنفس مكانها.

لقد جمعتهما الخسارة كما تجمع النار رمادها. كلاهما خرج من حادثٍ مختلفٍ لكنه متشابه في جوهره : هو فقد ابنته في ارتطامٍ عبثيٍّ بين الحديد والقدر، وهي فقدت ذاتها حين سُلب منها معنى الأمان، فصارت تجرّ وراءها ظلًّا لا يفارقها. كانا جرحين يسيران على قدمين، يلتقيان لا ليزيدا الألم، بل ليتقاسماه حتى يخفّ ثقل العالم عن كتفيهما.

وبمرور الأيام، تلاشت المسافة بينهما كما يذوب الجليد تحت دفء يدين مرتجفتين. صارا صديقين في المعنى العميق للكلمة، لا يكتفيان بتبادل الرسائل، بل يتبادلان ظلال أفكارهما، ويبوح كلٌّ منهما بما لا يُقال عادةً للعالم.

كانت زويا تكتب له حين يثقل عليها الليل، وكان كاين يجد في كلماتها عزاءً لا تمنحه المخابر ولا المعادلات. في صداقتهما شيء من النجاة الهادئة، كمن يمشي فوق حافة الهاوية متكئًا على يدٍ يعرف أنها قد تسقط معه، لكنها على الأقل لن تتركه يسقط وحيدًا.

كتبت له زويا في إحدى الليالي :

*(أحيانًا أشعر أنّ **الحزن** يشبه البحر؛ لا يمكن مقاومته، لكن يمكن تعلّم السباحة فيه)*

فردّ كاين :

*(وأنا أظنّ أن **الألم** هو المعمل الذي يُعاد فيه تشكيل الإنسان من جديد. الخلايا تلتئم، لكنّ المعنى لا يلتئم إلا بالمشاركة)*

لم يكن بينهما وعدٌ، ولا رغبةٌ في شيءٍ محدّد. كان وجودهما في حياة بعضهما نوعًا من الطمأنينة المتبادلة ، كأنّ كلّ واحدٍ منهما وجد في الآخر مرآةً لجراحه، وملاذًا لشيءٍ لم يقدر العلم على تفسيره.

مع مرور الشهور، بدأ كاين يزورها في بيتها القديم على أطراف المدينة؛ بيت تغمره نباتات متسلقة، تشبه زويا في عنادها حين تنمو من شقوق الحجارة. كانا يجلسان على الشرفة يتحدثان عن الحياة كما يتحدث فيلسوفان هاربان من معبدهما : بلا أجوبةٍ، لكن بصدقٍ كامل.

في إحدى الأمسيات قالت له زويا، وهي تحدّق في الغروب :

= هل تظنّ أن الإنسان يمكنه أن يحبّ بعد أن يفقد كلّ شيء ؟

فأجابها بعد صمتٍ طويلٍ :

= ربّما لا يحبّ بالمعنى القديم. لكنّه يحبّ بطريقةٍ أعمق : كمن يرى الآخر امتدادًا لشيءٍ فُقِدَ في داخله. الحبّ بعد الفقد ليس بدايةً جديدة، بل إعادة تعريفٍ لما تبقّى من القلب..

تأمّلت كلماته وقالت بنبرةٍ خافتةٍ :

= كنت أظنّ أن المعرفة تُنقذنا، لكنّي أراك تختار الغموض الآن ..

ابتسم كاين وأجاب :

= المعرفة أنقذتني مرّةً، ثم قتلتني مرّةً أخرى. لقد عرفتُ موعد موت ابنتي قبل أن تموت... وما نفع العلم حين يعجز عن تغيير المصير؟ أحيانًا، الجهل نعمة، لأنّ **الغيب هو آخر مساحةٍ يتركها الله لنا كي نمارس فيها الأمل ..**

في تلك الأيام بدأ ما يشبه الضوء يعود إلى حياتهما. لم يكن ضوء علمٍ جديد، بل ضوءاً إنسانيّاً بسيطاً : أن يجد أحدهما الآخر في لحظةٍ كان كلٌّ منهما يظنّ أنه انتهى.

مع الوقت، شعر كاين بشيءٍ لم يجرؤ على تسميته، ليس لأنّه يخافه، بل لأنه يحترمه. كان يرى في زويا ظلّ ابنته حين تضحك، ونضج امرأةٍ عرفت أعماق الألم ثم

خرجت منه أكثر صفاءً. كانت تذكّره بأنّ الشفاء لا يأتي من التجارب المخبرية بل من الحضور الصادق لإنسانٍ آخر.

وذات مساء، بينما كانت الأمطار تهطل على زجاج المقهى الذي يجتمعان فيه، قال كاين بصوتٍ خافتٍ :

= زويا، لسنواتٍ كنت أظنّ أنني أستطيع أن أحمي من أحبّهم بالمعرفة. لكنّي أدركت أنّ المعرفة لا تقي الموت، ولا الحزن، ولا القدر. كلّ ما يمكننا فعله هو أن نحبّ جيدًا قبل أن ينتهي الوقت و تصمت الكلمات.. و لا أريد أن أفوّت على قلبي فرصة اعتراف بسبب حسابات العقل المعقدة و الجافة ..

أجابته بعينين دامعتين :

= لم أفهم ..

قال :

= إنّ وجودك في حياتي ملأ الفراغ الذي تركته زوجتي أولاً ثم ابنتي آفا ثانياً .. وأعلم أيضًا أنني لا أريد أن أفقدك .. أنت أنثى استثنائية بشخصيتك القوية و روحك الشفافة و عقلك المتقد .. لقد خبأ ذاك القرصان الذي اعتدى عليك صندوق كنز اسمه زويا في جزيرة نفسية معزولة .. و من حظي الجيد أنني عثرت عليه .. ليس عن طريق الصدفة بل بأنامل القدر ..

كانت تلك المرة الأولى التي يعترف فيها بحبه ..

لم تجبه زويا بكلمة. مدّت يدها فقط، ووضعتها فوق يده. كان ذلك كافيًا ، لا اعترافٌ ولا إنكار، فقط لحظةٌ إنسانيةٌ مكتملة.

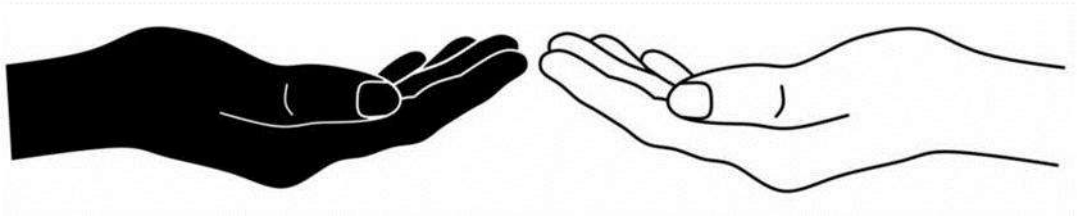

مع نهاية العام على لقائهما الأول، تحوّل لقاؤهما إلى عادةٍ تشبه الصلاة اليومية. ذهبا إلى الجبال في ذكرى حادث السير ، تركا وردةً صغيرة على الطريق حيث توقّفت الحياة مرّةً، ثم وردة أخرى في مكان التخييم حيث كانت لحظة التحول الجذرية في حياة زويا ، ثم عادا إلى المدينة وهما أكثر صمتًا.

حلّ الربيع مبكرًا هذا العام وذابت الثلوج لتكشف المروج ، جلسا في مقهى صغيرٍ يطلّ على النهر. هناك قال لها كاين :

= تذكرين ما قالته الشيفرة عنك ؟ بعد عام من الآن ستجدين رجلاً يتوافق مع جراحك على نحوٍ مثالي ثم تتزوجينه ؟

ابتسمت بخجلٍ وغمغمت :

= نعم، وكنت أظنّها مزحة من القدر.

قال وهو ينظر إليها بعينين دافئتين :

= ربّما لم تكن مزحة. زويا، لقد انتظرتُ أن ينتهي الحداد كي لا أخلط بين الحنين والحبّ. لكني الآن أعرف أنني أريد أن أبدأ معك حياةً جديدة ملونة و بهيجة. فهل تقبلين الزواج بي ؟

ساد صمتٌ طويلٌ، كأنّ الهواء نفسه ينتظر الإجابة. ثم قالت زويا :

= أتعلم ما المدهش في الموضوع ؟ أنني لم أعد أرى فيك الباحث، ولا الصديق، بل الإنسان الذي كان يجب أن ألتقيه يوم اخترت الموت. يبدو أن القدر كان أكثر حكمةً منا و رأفةً بنا .. نعم ، أقبل و بكل سرور و أمل

وهكذا اكتملت نبوءة الجينوم مرّةً أخرى، ولكن لا كما أرادها العلم، بل كما أرادتها الحياة.

تزوجا في حفلٍ صغيرٍ في بيته الريفيّ المطلّ على

الغابة نفسها التي شهدت الحادث القديم. حضر أندريه وميران وعددٌ من الأصدقاء القدامى. لم يكن هناك ضجيج ولا إعلام؛ فقط موسيقى هادئة، وضوءٌ ذهبيّ يتسلّل من بين الأشجار.

في تلك الليلة، وقف كاين وحده للحظةٍ أمام نافذة البيت ونظر إلى السماء. كان الليل صافيًا كمرآة، ونجمةٌ بعيدة تلمع كما لو كانت تناديه باسم آفا . عندها ابتسم وقال في نفسه :

(لقد فهمت الآن يا صغيرتي. لم تكن النبوءة خطأً في الكود... كانت درسًا في معنى الغيب. إن أجمل ما في الحياة هو ما لا نعرفه بعد ..)

بعد الزواج، استمرّ كاين في عمله فترةً قصيرة، ثم بدأ يبتعد عن المختبر. صار يرى أن المعرفة، حين تُنزَع من الرحمة، تتحوّل إلى عبءٍ لا يُحتمل.

ذات يومٍ جمع أندريه وميران في مكتبه، وقال لهما بنبرةٍ هادئةٍ حاسمة :

= أصدقائي، لقد وصلتُ إلى النهاية. المشروع سينتهي هنا. لقد حسبتُ كلّ الاحتمالات، ورأيتُ أن البشر يجب ألا يعرفوا مستقبلهم. المعرفة دون قدرةٍ على التغيير ليست علماً، بل لعنة ..

اعترض أندريه قائلاً :

= ولكن يا كاين، لقد كان هذا حلم حياتنا ! أن نفكّ شفرة القدر .. و العالم كله بانتظار إخراج مشروعنا إلى النور

ابتسم كاين وقال :

= وها نحن قد فعلناها .. لكننا حين عرفنا، فقدنا الطمأنينة .. **إن الذي يعرف الغد يفقد لذّة الانتظار، والذي يرى نهايته يفقد رغبة البداية**. أحيانًا، أجهلُ نفسي كما يجهلها الآخرون، وهذا ما يجعلني حيًّا ..

قالت ميران، بنبرةٍ مترددةٍ حزينة :

= هل ستمسح كلّ شيء إذن ؟ كلّ البيانات ؟ كلّ

التجارب ؟

أجابها بحزم :

= نعم ، سأترك القليل منها فقط، لتذكّرنا أننا اقتربنا من حافة الضوء ولم نحترق. لكني سأغلق الباب إلى الأبد. من اليوم، سأختار أن أعيش كما يعيش الجميع ، بلا خريطةٍ، بلا تنبؤ، بلا معرفةٍ مسبقةٍ بالنهاية ..

بعد أشهرٍ من ذلك القرار، كان كاين وزويا يعيشان حياةً هادئة في منزلهما الجبليّ. كانت تكتب في مواقع التواصل الاجتماعي منشوراتٍ عن فلسفة المجهول ، و تعزف على كمانها الحزين مقطوعات مبهجة و كأنه تصالح معها أخيراً، بينما يعتني كاين بحديقته الصغيرة. لم يكن بينهما سوى حديثٌ متواصلٌ عن الزمن والحياة والإيمان و الأمل ..

قالت له في أحد الأيام وهما يشاهدان الثلج يتساقط :

= أتظنّ أننا نعيش في عالمٍ يزداد معرفةً ويفقد حكمته ؟

فأجابها مبتسمًا :

= ربّما. لقد تعلّم الإنسان أن يقرأ المجرّات لكنه لم يتعلّم أن يقرأ قلبه. **المعرفة ليست النقيض للغيب، بل هي مجرّد ضوءٍ يذكّرنا بأنّ الظلام موجود.** حين كنتُ أبحث عن الشيفرة الكاملة ظننتُ أنني أقترب من الله، لكنّي كنتُ أبتعد عنه، لأنّي أردتُ أن أشاركه سرّه. الآن أكتفي بأن أعيش سرّ الحياة دون أن أفكّه ..

قالت زويا وهي تميل برأسها إلى كتفه :

= وأنا اكتشفت أنك كنت النور في تلك الغرفة المظلمة، الشعاع الذي دخل من النافذة في ذروة يأسي لم يكن سواك ..

ضحك كاين بخفوتٍ وقال :

= لا شيء سيغير حبي لك زويا .. و سأبقى كنجمٍ صغير يهوّن عليك الظلام عندما تقسو الأيام ..

وفي آخر مساءٍ من ذلك الشتاء، كتب كاين على صفحةٍ من دفتره القديم الذي كان يدون فيه ملاحظاته العلمية :

(لقد تعبتُ من ملاحقة الغد، واكتشفتُ أن الإنسان لا يُخلق ليعرف كلّ شيء، بل ليحبّ، ويخطئ، ويخاف، ويؤمن. إن السرّ الذي نبحث عنه ليس في الجينوم، بل

في قدرتنا على الصبر حين لا نعرف. الغيب ليس عدوّ العلم، بل مكمّله، لأنه يمنحنا المساحة التي نحتاجها لنرجو ..)

ثم أغلق الدفتر ووضعه في درجٍ قديم، وقال لزويا التي كانت تقرأ بجانبه :

= هكذا تنتهي التجربة يا حبيبتي. لا في المختبر، بل في القلب .. لنكون سوياً أباً و أماً لآفا كما تستحق..

ابتسمت هي وأجابت :

= وهكذا تبدأ الحياة الحقيقية أخيرًا ، بغموضها الذي يمنحها معناها و جمالها ..

أطفأ المصباح، وبقي ضوءٌ صغيرٌ يتسلّل من خلف الستائر، يشبه الشعاع الأول الذي دخل غرفة زويا ذات يوم، حين كانت وحيدةً يائسةً في ظلامها.

لكن هذه المرة، لم يكن الشعاع غريبًا ... كان امتدادًا لحياةٍ بدأت من الفقد، وانتهت بالمعنى ، لتصدق أخيراً مقولة **كافكا** التي طالما أحبتها :

(لن أكتشف الحقيقة إلا بعد أن أفقد كل شيء)

... DNA

ملحق ثقافي ..

منذ فجر الوجود، حين لم يكن في الكون سوى غبار النجوم وخرير الذرات في الفراغ، كانت هناك إرادة خفية تجمع الفوضى إلى نظام، وتصوغ من اللامعنى معنىً، ومن العدم نغمةً أولى تُفتتح بها قصيدة الخليقة. تلك النغمة ليست سوى شيفرة الحياة، وهي - على بساطتها الظاهرية - أكثر تعقيدًا من كل ما ابتكره العقل الإنساني. إنها الحمض النووي الريبوزي منقوص الأوكسجين أو **DNA**، الكتاب المقدس الذي كتبه الكون بلغة لا تُقرأ بالعين، بل تُترجم في خلايا الكائنات إلى نبضٍ ودفءٍ ووعي.

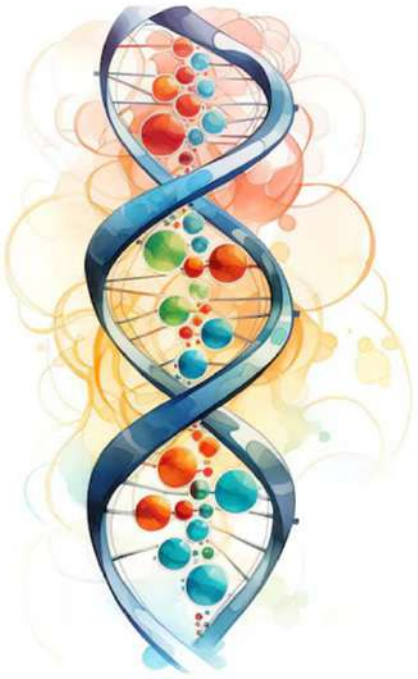

يتألف هذا الجزيء من لولبين متعانقين، كراقصين أبديين في رقصة خالدة لا تعرف السكون. يلتف أحدهما

حول الآخر في التواءٍ سماويّ يشبه دوران المجرّات.

وفي داخله، تمتد سلالم دقيقة من الروابط الهيدروجينية، كل درجةٍ منها تتكوّن من زوجٍ من القواعد الآزوتية التي تمثل حروف الأبجدية الوراثية :

الأدينين (**A**)، الثايمين (**T**)، السايتوزين (**C**)، والجوانين (**G**).

هذه الحروف الأربعة - لا أكثر - هي كل ما يحتاجه الكون ليكتب ملايين القصائد البيولوجية : من ريش طيور الجنة إلى جلد الإنسان، من أغنية البلبل إلى خلايا الدماغ التي تفكّر الآن في معناها.

ولكن، ما سرّ هذه اللغة ؟

وكيف تُترجم حروفها الكيميائية إلى كيانٍ نابضٍ بلحمٍ ودمٍ ؟

من الكلمة إلى الجسد

حين ينظر عالم الأحياء إلى جزيء **DNA**، فإنه لا يرى مجرد مادة، بل نصًّا مقدّسًا مكتوبًا بالحروف النيتروجينية. في داخل كل خلية، يُفتح هذا الكتاب في لحظةٍ تُسمّى **النسخ** (**Transcription**)، فيُنسخ جزءٌ من الشيفرة إلى رسالةٍ تُدعى الحمض الريبي (**mRNA**). هذه الرسالة تُغادر نواة الخلية كأنها ساعي بريد يحمل وصية الخلق إلى مصانع الحياة : **الريبوسومات**.

وهناك، تبدأ المرحلة الأعجب : **الترجمة** (**Translation**).

في هذا المسرح الصغير، تتحول الكلمات الوراثية إلى أفعال بروتينية. كل ثلاث قواعد آزوتية متتالية - وتُسمى **كودونًا** (**Codon**) - ترمز إلى حمض أميني واحد.

كأن الكون قرّر أن يكتب الحياة بنظامٍ ثلاثيّ الحروف، يشبه نغمة موسيقية مؤلفة من ثلاثة أوتار.

هناك عشرون حمضًا أمينيًا فقط، لكنها - مثل الأبجدية البشرية - تُركّب بلا نهاية، لتنتج منها ملايين البروتينات التي تبني الأجساد وتوجّهها وتُصلحها وتُميتُها لتعيد خلقها من جديد.

إنها أبجدية كيميائية لا تقلّ شعرًا عن أبجدية الشعراء.

فحين يكتب **DNA** تسلسلًا مثل **AUG** ، فهو يقول بلغة الحياة : (ابدأ الترجمة إلى بروتين، هكذا يولد الجسد) ..

وحين يكتب **UAA** أو **UGA**، كأنه يضع نقطةً في نهاية جملةٍ بيولوجية : (هنا تنتهي الجملة، اكتمل المعنى) ..

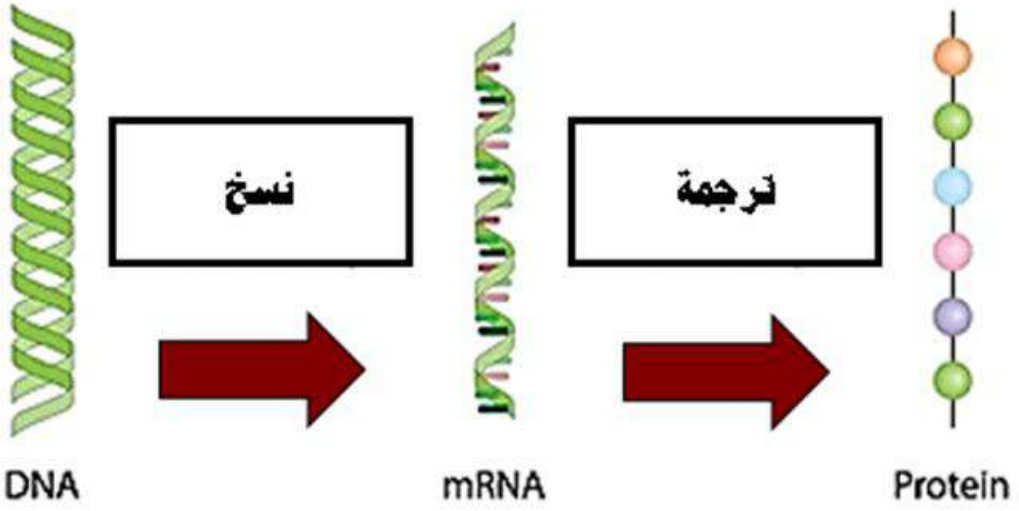

حروف الخلق وأبجدية الإنسان

تأمل كم هو عجيب أن تُبنى كل حياة على كوكب الأرض من أربع حروفٍ فقط.

بينما لغات البشر تحتاج إلى عشرات الحروف لتروي قصصها، اكتفى الخالق بأربعةٍ ليكتب قصة الوجود.

وإذا تأملنا أكثر، نجد أن كل كودونٍ من ثلاثة حروف

يمكن أن يُرمز - استعاريًا - إلى حرفٍ من حروف الهجاء الإنساني. فكما أن كل كلمة في لغتنا تولد من اجتماع الحروف، فإن كل كائن حيّ يولد من اجتماع الكودونات.

يمكننا أن نتخيل أن لكل تسلسل جيني صوته الخاص، ولكل بروتينٍ جملةً منسوجة بلغة لا نسمعها، لكنها تُنطق في صمتٍ داخل كل خلية منّا.

تخيّل، لو وُجد مترجمٌ بين اللغتين - لغة الإنسان ولغة الحياة - لكان قادرًا على تحويل تسلسلٍ من القواعد إلى نصٍّ مكتوب بالحروف الأبجدية، فيصبح الجين الواحد قصيدة، والبروتين بيتًا من الشعر.. و هذا ما سعى إليه الباحث أوريل كاين و زملاؤه في روايتنا ..

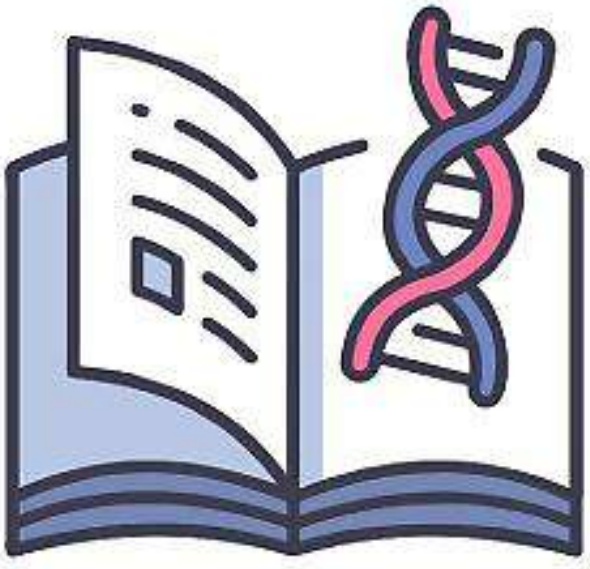

هكذا يمكننا القول إن الإنسان نفسه - في جوهره الكيميائي - نصّ مكتوب في لولبٍ مزدوجٍ من الضوء.

كل نبضة، كل فكرة، كل حبٍّ أو جنونٍ، ليس إلا تفاعلًا بين كلماتٍ في كتابٍ خفيّ.

فلسفة الشيفرة و الطفرة

ربما لم يُخلق **DNA** ليحفظ فقط شكل الحياة، بل ليُعلّمنا معنى اللغة ذاتها.

فكما تُبنى القصيدة من إيقاعٍ وترتيبٍ دقيقٍ للكلمات، تُبنى الحياة من إيقاعٍ دقيقٍ لتتابع القواعد الآزوتية.

الخطأ في حرفٍ واحد (الطفرة) ، قد يُغيّر المخلوق بأكمله ، كما يُغيّر الخطأ في بيت الشعر معناه ، و كما حدث مع الطفلة آفا بالضبط ..

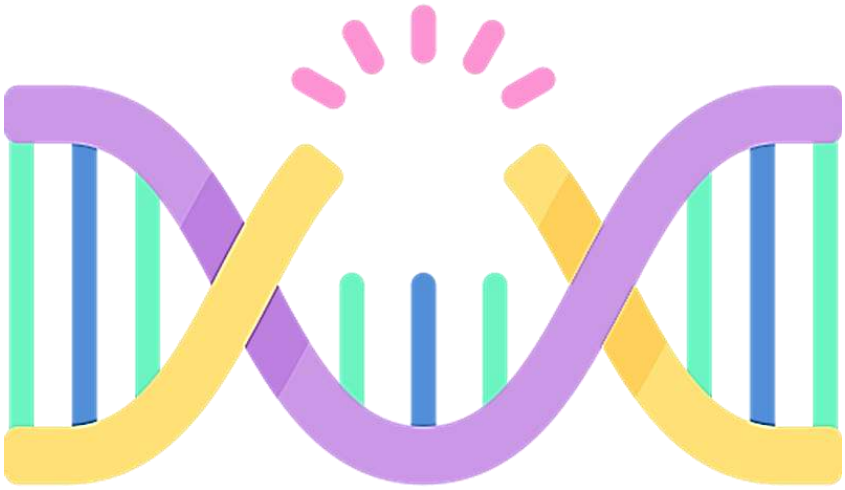

تلك الدقّة العجيبة هي ما يجعلنا نقف خاشعين أمام هذا الجزيء الذي لا يزيد سمكه عن جزء من المليار من المتر، لكنه يحمل في داخله ذاكرة النجوم وتاريخ الأرض.

إنه الكتابة الأولى، التي سبقت الإنسان والورق والحبر.

إنه اللغة التي كتب بها الكون ذاته.

ومن تأمل هذه الحقيقة، نفهم أن الشعر والعلوم والفلسفة ليست مجالات متفرقة، بل روافد تصبّ جميعها في نهرٍ واحدٍ اسمه : (**البحث عن المعنى**) ..

حين يكتب الإنسان مصيره قبل أن يوجد

في النهاية، يمكننا أن نقول إن جزيء **DNA** ليس مجرد سلسلة من الذرات، بل قصيدة الخلق مكتوبة بالحروف الأربعة الكبرى : **A**، **T**، **C**، **G**.

ومنها تُترجم الحياة إلى لغة البروتينات، ومنها تُكتب قصيدة الجسد، ولحن الدم، وصرخة المولود الأولى.

ولعل أجمل ما في هذه الشيفرة أنها تشبهنا :

فيها النظام والفوضى، الصواب والخطأ، الصمت والكلمة.

فكل **DNA** فينا هو كتاب حياتنا من المهد إلى اللحد، وكل حرفٍ فيه يلمع كنجمةٍ في مجرةٍ من المعاني تنتظر الترجمة ذات يوم على يد باحث قد يدعى كاين أو غيره ، قد يحب معرفة الغيب أو قد يعشق بقاء الحياة غامضة تفاجئنا بكل أمل ننتظره ..

... DNA

محتوى الكتاب :

- خطأ مطبعي ..
- زويا ..
- شفرة **DNA** ..
- خنجر القدر ..
- السرّ إذا تجاوز الاثنين شاع ..
- صراع مع الذات ..
- صدمة مدويّة ..
- ترند التاريخ ..
- لا حذر من قدر ..
- فسحة أمل ..
- لن تفهم نفسك إلا بعد أن تفقد كل شيء ..